الفصل الرابع

منتخبات من آثار عبد الرحمن الكواكبي

١ ـ الكواكبي الوطني

الغرب والشرق

أصيب الشرق بكوارث ومصائب أقعدته عن السعي والرفعة والمجد ، ونهض الغرب وهب ينشئ حضارة كبيرة أذهلت الشرقيين وجعلتهم فى إعجاب وإكبار ، فسوا معه حضارتهم وكيانهم ، وتغافلوا عن معايب الغرب ، والكواكبي يصف هذا الحال فى إيجاز :

نَعَمْ ، الغربيُّ مادىُّ الحَياة ، قويُّ النَّفْس ، شديدُ المعاملة ، حريصٌ على الاستِئْثارِ ، حريصٌ على الانْتِقام ، كأَنَّهُ لم يبقَ عنده شيءٌ من المبادئِ العاليةِ والعواطفِ الشَّريفة التى نَقَلَتْها له مسيحيَّةُ الشَّرْق .فالجرمانىُّ مَثَلاً جافُّ الطَّبع ، يرى أَنَّ العضْوَ الضَّعيفَ الحياة من البشرَيستحقُّ الموت ، ويرى كلَّ الفضيلةِ فى القوَّة ، وكلَّ القوة فى المال . فهو يُحِبُّ العلمَ ولكن لأَجل

(١) عمدنا فى الصفحات الماضية إلى دراسة الرجل وكتبه وبيانه ، ونثبت هنا مختارات من آثاره ، لنعرض ألوان تفكيره فى النواحى المختلفة من الوطنية والسياسة والاجتماع والأدب والعلم . ولم يصل إلينا من هذه الآثار إلا كتاباه « طبائع الاستبداد » و« أم القرى » ، كما قلنا ، وهما يتشابهان أحياناً فى الآراء والأفكار والجمل شبه القطرة بالقطرة . فربما تكرر الرأى وأعيدت الفكرة ورويت الجملة ثانية وثالثة ، فأثبتناها كما جاءت زيادة فى التوضيح والبيان ، لنبرهن على أنها من ينبوع واحد صاف . فلم نتعب فى الاختيار لأن كل ما كان من الكواكبى حسن ، ولكننا حرنا فى التصنيف لأن الآراء متداخلة متشابكة متنوعة المواضيع ، ولم نقابل بين آرائه وآراء المصلحين والزعماء فى عصره وبعد عصره ، لضيق المجال ، ونريد أن نشير إلى أننا اعتمدنا فى رواية النصوص على « طبائع الاستبداد » طبعة ١٩٣١ « وأم القرى » نشرة « مجلة المنار » فى الكتاب المستقل الذى أصدره محمد رشيد رضا ، بعبارة مصححة ، جاءت فى « مجلة المنار » بالسنة الخامسة قبل ذلك .

المال ، ويحبّ المجدَ ولكن لأجل المال . واللّاتينيُّ منه مطبوعٌ على العُجْب[١] والطَّيْش ويرى العقلَ فى الإطلاق ، والحياةَ فى خَلْع الحياء ، والشَّرفَ فى الزِّينةِ واللِّباس ، والعزَّ فى التغلُّب على النَّاس . أمَّا أهلُ الشَّرْق فهم أدبيُّون ويغلب عليهم ضَعْفُ القلب وسلطانُ الحبّ والإصغاءُ للوجدان والرحمة ، ولو فى غير موقعها ، واللطف ولو مع الخَصْم ، والفتُوّة والقَناعة والتَّهاون فى المستقبَل . ولهذا ليس من شأنِ الشَّرْقىّ أن يُجَوِّزَ ما يستبيحُه الغربىّ : وإن جَوَّزَهُ لا يُحْسِنُ استثمارَهُ ، ولا يقْوَى على حِفْظه . فالشرقىُّ مثلاً يهتمُّ فى شأن ظالمِهِ المستبدِّ ، فإذا زال لا يفكِّر فيمن يخْلُفهُ[٢].

الاستعمار

تقدم الغرب فى ميادين العلم والفكر والصناعة والحضارة ، واندفع إلى القوة والجبروت فتطلع إلى الشرق وضعفه فاستصغره ، وهجم عليه بآلاته وأسلحته ليخضع أقطاره ويسخر رجاله ، ويستغل أرزاقه ، فكان على المصلحين أن ينبهوا الشرقيين إلى الخطر ، وأن يصيحوا فيهم صيحة مخلصة إلى الوعى واليقظة فيقول الكواكبى :

أدعوكم ، وأخصُّ منكم النُّجَباءَ للتبصُّر والتَّبْصير فيما إليه المصير . أليس مطلق العربىّ أخفَّ استحقاراً لأخيه من الغربىّ هذا الغربىُّ قد أصبح ماديًّا لا دِينَ له غيرُ الكسب ؛ فما تظاهُرُهُ مع بعضنا بالإخاء الدِّينىّ إلاَّ مخادعةً وكَذِباً . هولاء الفرنسيسُ يطاردُون أهلَ الدِّين ويَعْمَلُون على أنهم يتناسوْنه . بناءً عليه لا تكونُ دعْوَاهم الدِّين فى الشَّرق إلَّا كما يُغَرِّد الصَّيَّادُ وراء

(١) العجب : الزهو والخيلاء .

(٢) « طبائع الاستبداد » ص ٨٢ .

الأَشْبَاك . الغربيُّ أرقى مِنَ الشَّرْقيّ علماً وثروةً ومنْعَةً ، فله على الشرقيِّين إذا واطَنَهُم السيّادةُ الطبيعيّةُ . أمّا الشَّرقيُّون فِيما بَيْنَهُم فمتقاربون لا يَتَغَابَنُون . الغربيُّ يَعرِفُ كَيْف يَسُوس وكيف يتمتَّعُ ، وكيف يأسرُ وكيف يَسْتَأْثِر . فمتى رأى فيكم اسْتِعْداداً واندِفاعاً لمجاوَرته أو سَبْقِهِ ضَغَط على عقولكم لتبقَوا وراءه شوطاً كبيراً كما يفعل الرُّوس مع البولونيِّين ، واليهود والتاتار . وكَمَا هُو شَأْنُ دول الاستعمار الغربيّ ، مَكَث فى الشَّرْق لا يخْرُجُ عن أنَّهُ تَاجِرٌ مُسْتَمْتِعٌ فيأْخذُ فَسَائلَ[1] الشَّرق ليغرسها فى بلده التى لا يَفْتَأُ يفتخر برياضها ويحنّ إلى أَرْباضها .

قد مضى على الهولانديين فى الهند وجزائرها ، وعلى الرُّوس فى قازان مثل ما أقمنا فى الأندلس . ولكن ما خَدَمُوا العلمَ والعمرانَ بِعُشْرِ ما خدمناهما . ودخلَ الفرنساويون الجزائرَ مُنْذُ سبعين عاماً ولم يسمحوا بعدُ لأهلها بجريدةٍ واحدةٍ تُقْرأ . نَرَى الإنكليزيَّ فى بلادنا يُفَضِّلُ قَديدَ[2] بِلاده وسمكَ بِحاره على طرى لحمنا وسمكنا . فهلاَّ ، والحالة هذه . تُبْصِرُون يا أُولى الأَلباب[3] ! !

أيها الشرق العظيم

وهذا وصف عظيم للشرق وإكبار لأرضه وسمائه ومائه ، ونداء إلى حبه وتعشقه . ففيه أحسن ما فى الدنيا وأجمل ما فى الكون ، من دين وعقيدة وخلق متين ، وفيه غنى وثروات لا تحصى ، يعدد منها الكواكبي فى أسلوبه اللطيف فيقول :

وأنتَ أيُّها الشَّرْقُ الفخيمُ ، رعاك الله ! ماذا دهاك ؟ ! ماذا أَقْعَدَك

---

(١) الفسيلة : النخلة الصغيرة تقلع من الأرض أو تقطع من الأم فتغرس ، جمعها فسائل وفسيل .

(٢) القديد : اللحم المقدد أى المجفف . (٣) « طبائع الاستبداد » ص ١١١ .

عن مَسْراك ؟ أليست أرضُك تلك الأرض ذاتَ الجِنان والأفنان ومنبتَ العلم والعرفان وسماؤُك تلك السَّماءَ مصْدَرَ الأنوار ومهبطَ الحِكْمة والأدْيان . وهواؤُك ذاك النَّسيمَ العدلَ لا العواصفَ والضَّباب . وماؤُك ذاك العَذْبَ الغَدق[1] لا الكَدِر ولا الأجاج .

رعاك اللهُ ، يا شَرْق . ماذا أصابَكَ فأَخلَّ نظامَك . والدَّهرُ ذاك الدهر ما غَيَّر وضعَكَ ولا بدَّلَ شَرْعَه فيك . ألم تزَلْ مناطقُكَ هى المعتدلة ، وبنوك هم الفائقون فِطْرةً وعددًا . أليس نظامُ اللهِ فيك على عهدِهِ الأوّل ، ورابطةُ الأدْيان فى بَنيك محكمةً قويمةً موسَّسةً على عبادةِ الصَّانعِ الوازع . أليستْ معرفةُ المُنْعِمِ حقيقةً راهنةً أشرقتْ فيكَ شمسُها ، أيدَتْ بها عِزَّ النَّفْسِ وأحْكَمَتْ بها حُبَّ الوطن وحُبَّ الجِنْس !

رعاكَ الله ، ياشَرْق . ماذا عَرَاك وسَكَّن منك الحَراكَ . ألم تزل أرضُك واسعةً خِصْبة ، ومعادنُك وافيةً غنيَّةً وحيوانُك رابياً[2] متناسلاً ، وعمرانُك قائماً متواصلاً ، وبنُوك على ما ربَّيتَهم أقْرَبَ للخير من الشرّ . أليس عندهم الحِلْمُ المسمَّى عند غيرهم ضَعْفاً فى القلب ، وعندهم الحياءُ المسمَّى بالجبانة[3] وعندهم الكرم المسمَّى بالإتلاف ، وعندهم القَناعة المسماة بالعَجْز ، وعندهم العِفَّة المسماة بالبلاهة ، وعندهم المجاملة المسماة بالذُّل[4] .

---

(١) الغدق : الماء الكثير — الأجاج : الملح المر من الماء كماء البحر .
(٢) ربا يربو : زاد ونما ، وربا الفرس انتفخ من علو أو فزع .
(٣) جبن جبناً وجبانة فهو جبين ، ضعيف القلب .
(٤) « طبائع الاستبداد » ص ١١٢ .

٢ – الكواكبي السياسي

المستبد

كتاب «طبائع الاستبداد» كله صيحات فى وجه المستبد والظالم ، ودعوة المظلوم والمحكوم والضعيف إلى أن يتيقظوا ويطالبوا بحقوقهم المغتصبة بالاستعداد فهو يدفع الاستعباد ، وهو يضرب الأمثال هنا فى صور جميلة أدبية فيقول :

المُسْتَبِدُّ يَتَحَكَّم فى شُئونِ النَّاس بإرادتِه لا بإرادتهم ، ويحاكمُهم بِهَوَاهُ لا بشريعتهم . ويعلم مِنْ نفْسِه أَنَّه الغاصبُ المتعدِّى فيضع كعبَ رِجْله على أَفْواهِ الملايين من النَّاس يسدُّها عن النُّطْق بالحقِّ والتَّداعى لمطالبته .

المستبدُّ عدُوُّ الحق ، عدُوُّ الحرية وقاتلُهما . والحقُّ أبو البَشَر والحريَّة أُمُّهم والعوامّ صبيةٌ أيتامٌ نِيام ! لا يعلمون شيئاً . والعلماءُ هم إخوتُهم الراشدون إنْ أيقظوهم هَبُّوا وإن دَعَوْهم لَبُّوا .

المستبِدُّ يتجاوزُ الحَدّ لأَنَّه لا يَرى حاجِزًا ، فلو رأى الظَّالم على جَنْب المظلوم سيفاً لما أَقْدَم على الظُّلْم ، كما قيل : الاستعداد للحرب يَمْنَعُ الحرب .

المُستبدُّ إنْسانٌ مستعِدٌّ بالفطْرة للخير والشَّر ، فعلى الرَّعِيَّة أن تكونَ مستعِدّةً لأَن تعرفَ ما هو الخيرُ وما هو الشَّر ، مستعدَّةً لأَن تقول لا أُريد الشرّ ،مستعدَّة لأَن تَتَّبع القولَ الذى ليس وراءَه إلَّا العمل . والقولُ بلا فعلٍ[1] موجةٌ فى الهواء ، على أن مجرّدَ الاستعدادِ للفِعْل يكفى شَرَّ الاستبداد .

---

(١) هذه الجملة مصحفة فى الأصل قد وردت كما يلى : « والقول أفعل هو موجة فى الهواء » فعلها كما صوبنا .

المستبدُّ إنسانٌ ، والإنسانُ أكثرُ ما يألفُ الغَنَمَ والكِلابَ ، فالمستبدُّ يودُّ أن تكونَ رعيَّتُه كالغَنَم ذرًّا وطاعة ، وكالكلاب تذلُّلاً وتملُّقاً . وعلى الرعيَّة أن تكون كالخَيْل إنْ خُدِمَت خدَمَت وإن ضُرِبتْ شرست . بل عليها أن تعرفَ مقامها ؛ هل خُلِقَتْ خادمةً للمستبدِّ أم هي جاءت به ليخدمَها فاستَخْدَمَها[1] .

الاستبداد السياسي والديني

يرجع الكواكبي أكثر الغفلة والفتور والنوم في الشعوب المسلمة إلى سيرها وراء التدين الزائف وبعدها عن فهم الإسلام الصحيح والتعاليم السامية ، فيتناول في كلامه الكتب المقدسة وما فيها من تهديد ووعيد ، ليشرح علتها وأسبابها ، ويبين خطل الرأي في فهمها ، فيقول .

قَدْ تضافَرَتْ آراءُ أكثرِ المحرِّرين السِّياسيين من الأفرنج على أنَّ الاستبداد السِّياسي متولِّدٌ من الاستبدادِ الديني . والبعضُ القليلُ منهم يقولُ : إنْ لم يكن هُناك توليدٌ فلا شكَّ أنهُما أخَوَان أو صِنْوانِ[2] قويّان ، بينهما رابطةُ الحاجةِ على التَّعاون بتذليل الإنسان والمشاكلة بينهما ظاهِرَة ، من أن أحدَهما حاكمٌ في عالَم القلوب والآخرَ مُتَحَكِّمٌ في مملَكَة الأجْسام . والفريقان مُصيبانِ في حُكْمِهما بالنَّظر إلى أساطير الأولين ، والقسْم التَّاريخيّ من التَّوْراة والرسائلِ المُضَافة إلى الإنْجِيل . وهم مخطِئُون مطلقاً في حقِّ الأقسام التعليميَّةِ منها كما هم مخطِئُون في نَظرِهم : أنَّ القرآنَ جاءَ باستبدادٍ مُؤيِّدٍ للاستبدادِ السياسيّ ، أو مُؤيَّدٍ به ؛ ولعلَّهُم يُعْذَرُون

(١) « طبائع الاستبداد » ص ١٠ .

(٢) صنوان : مثنى صنو وهو الأخ الشقيق وكل فرعين لأصل واحد .

إذا قالوا : نحن لا نُدْرِكُ دقائقَ القرآن نظرًا لخَفَائها علينا ، فى طى إشاراتِه وبَلاغته ، وإنَّما نَبْنى نَتيجتَنا على مُقَدّمات ما نُشاهِدُ عليه المسلمين اليومَ من آستِعانَةِ مُسْتَبِدِّيهم بالدِّين .

يقولُ هؤلاء المحرِّرون إنَّ التَّعاليمَ الدِّينيّة ومنها الكتب السماويَّة تَدعو البشَر إلى خَشْيةِ قُوَّةٍ عظيمةٍ هائلةٍ لا تُدْرِكُ كنهها العقُول ، تَتَهدَّدُ الإنسانَ بكلِّ مُصيبةٍ فى الحياةِ وعذابٍ مديدٍ أو خالدٍ بعد المماتِ تهديدًا ترتعِدُ منه الفرائِص ، فتخورُ القوَى وتنذهلُ منه العقولُ فتستسلمُ للخَبَل والأَوْهام ، ثم تفتحُ هذه التَّعاليمُ أبواباً للنَّجاةِ من تِلك المخاوف ، عليها حجابٌ من البَشَر هُم الأَحبارُ والقُسُس والمَشايخ ، ودخوليتها التَّعْظيم الرّاسِب بالقلب والقالب ، أى تقديم جزيةِ احترام مع ذلَّةِ اعترافٍ أو ثمن غُفْران ، أو كفالة الرزق من بيتِ المالِ لأولئك الحُجَّاب الذين بعضهم يَحجُزُون حتَّى الأَرواحَ من لِقاءِ ربِّها ما لم يأخذوا عنها رسومَ المرور إلى القبورِ وفديةَ الخلاصِ من الاعتراف[1] .

الحكومة المستبدة

كانت الحكومة العثمانية صورة للانحلال والظلم ، تحكم الممالك بعقول مريضة وشهوات ملحة ، ومن حولها جنود من المتملقين والمادحين ينعمون على حساب الشعوب المحكومة والأمم المتهدمة ، لا يجدون فى الحياة إلا منافعهم وأهواءهم ، سواء فيهم الوزير الأعظم أو المستخدم الصغير ، يظهرون غير ما يبطنون ، فيخدعون وهم المخدوعون ، وذلك ما آل بالدولة إلى المرض فالموت ، وهو ما يصفه الكواكبى ببراعته وكياسته فيقول :

الحكومةُ المستبدةُ تكونُ طبعاً مستبدة فى كل فروعِها ؛ من المستَبِد

(١) « طبائع الاستبداد » ، ص ١٢ .

الأعظمِ إلى الشُّرْطِيّ ، إلى الفَرَّاش ، إلى كَنَّاس الشوارع ، ولا يكونُ كل صنفٍ إلّا من أَسْفلِ أَهْلِ طبقته أخلاقاً . لأن الأَسافلَ لا يهمُّهم جلبُ محبَّة الناس إنما غايةُ مسْعاهم اكتسابُ ثقةِ المستبدّ فيهم بأنهم على شاكِلَته [1] وأنصارٌ لدولته ، وشَرِهُون لأكل السَّقطات من ذبيحة الأُمَّة .

وبهذا يأْمَنُهم ويأْمَنُونَه فيشاركهم ويشاركُونه . وهذه الفئةُ المستبدةُ يكثر عددُها ويقل حسبَ شدّةِ الاستبدادِ وخِفَّته . فكلما كان المستبد حريصاً على العسْف احتاجَ إلى زيادةِ جَيْشِ المُتَمَجِّدِين العاملينَ له والمحافظينَ عليه ، واحتاج إلى الدقَّة فى اتخاذِهم من أَسْفَلِ السَّافلين الذين لا أثر عندهم لدِينٍ أو وجدان ، واحتاجَ لحفْظ النِّسْبة بينهم فى المراتِبِ بالطريقة المحكومةِ وهى أنْ يكون أَسْفَلُهم طِباعاً أعلاهم وظيفةً وقُرْباً .

إنَّ العقلَ والتَّاريخَ والعيانَ كلٌّ يشهَدُ بأَنَّ الوزير الأَعْظَم المستبدَّ هو الشيءُ الأعظم فى الأُمّة ، ثمَّ مَنْ دُونَه من الوزراء يكونون دُونَه لُؤْماً . وهكذا تكونُ مراتبُ لؤْمهم حسَبَ مراتِبهم فى التَّشريفات . وربما يغترُّ المُطالعُ كما اغترَّ بعضُ المورخين البُسطاء بأَن كثيرًا من وزراء المستبدين كانوا يتأَوَّهُون من المستَبِد ويتشكَّوْنَ من أعمالِه ، ويجهَرُون بملامه ، ويُظْهِرُون لو أَنَّه ساعدهم الإمكانُ لعملوا وفَعَلوا وأَفْتدَوْا الأُمّة بأَموالِهم بل وحياتِهم . فكيف والحالةُ هذه يكونُ هؤلاء أكثرَ الأُمَّة لؤْماً بل : وكيف ذلك ومنهم الذين خاطرُوا بأَنفسهم والذين أَقْدَموا على مقاومة الاستبدادِ فنالوا المُرادَ أو بعضه أو هلكوا دونه [2] .

---

(١) على شاكلته : على نحوه وغراره . (٢) « طبائع الاستبداد »، ص ٤٦ .

الاستبداد والمجد

رجع الكواكبى إلى خزانة العرب وآثار الغرب ، فنقل أقوالا فى الاستبداد والظلم والمستبدين ، ورسم طريق المجد ضد الاستعباد ، فجاءت نقوله قريبة من كتب السياسة التى كانت تؤلف فى العصور الأولى للإسلام تجمع بين الأدب والحكمة ودفع الظلم ، وهذا بعض ما جاء فى كتابه :

وهذا « نيرون »[١] سأل « آغربين »[٢] الشاعر ، وهو تحت النَّطْع[٣] ، منْ أشقى النَّاس ؟ فأجابه مُعَرِّضاً به : مَنْ إذا ذَكر النَّاسُ الاستبدادَ كانَ مِثالاً له فى الخَيال . وكان « تراجان »[٤] العادل إذا قَلَّدَ سيفاً لقائدٍ يَقولُ له : هذا سيفُ الأُمَّة أرجو أن لا أتعدّى القانون فلا يكون له نصيب فى عُنُقى . وخَرَجَ « قيس » من مجلس « الوليد » مغْضباً يقول : أتريد أن تكون جبَّارًا ! واللهِ إنَّ نعالَ الصَّعاليكِ لأَطْوَلُ مِنْ سيفك . وقيل لأحد الأُباة : فَائِدَةُ سَعْيك غير جلْب الشَّقاء على نَفْسِكَ ؟ فقال : ما أَحْلَى الشَّقَاء فى سبيلِ تنغيص الظالمين . وقال : علىَّ أن أفى بوظيفتى وما علىَّ ضمانُ القضاء .

وقيل لأَحدِ النُّبلاء : لماذا لا تَبْنِى لك دارًا ؟ فقال : ما أَصْنَعُ فيها

---

(١) « نيرون » Neron إمبراطور رومانى حكم ٥٤ — ٦٨ الميلاد ، وسار أول الأمر سيرة حسنة ، ولكنه راح بعد ذلك يفتك بمن حوله فقتل « بريتا نيكوس » و « أغريبين » و « أركتافيا » زوجته فاشتهر بقسوته وقد هجاه الشاعر الفرنسى « راسين » على لسان « أغريبين » بشعر شديد الأسر .

(٢) ذكر الكواكبى أن « أغريبين » رجل شاعر عاصر نيرون وحدثه وأنذره . ولعله وهم فإن « أغريبين » Agrippixe هى أم « نيرون » أعانته فى الصعود إلى العرش ثم دبر لقتلها وكانت شجاعة حين الموت .

(٣) النطع : بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب أو بقطع الرأس .

(٤) وهنا ورد اسم الإمبراطور الرومانى « تراجان » Traian مصحفاً إلى « ترابان » وقد حكم الرجل من ٩٨ — ١١٧ الميلاد ، وكان إدارياً حازماً .

وأنا المقيمُ على ظَهْرِ الجَواد أو فى السِّجْن أو فى القبر ! وهذه ذاتُ النِّطاقَين ، أسماء[١] بنت أبى بكر رضىَ الله عنها ، وهى امرأة عجوز تودع ابنَها الوحيد بقولها : إنْ كنْتَ على الحقِّ فاذهبْ وقاتِلِ الحَجَّاجَ حَتَّى تموتَ .

والحاصِلُ أن المجدَ هو المجد مُحَبَّبٌ للنفُوس ، لا تفتأُ تَسعى وراءهُ وتَرْقى مراقيَه . وهو مُيَسَّرٌ فى عهدِ العَدْل لكلِّ إنسانٍ على حسبِ استعدادِه وهِمَّته ، وينحصرُ تحصيلُه فى زَمَنِ الاستبداد بمقاومةِ الظلم على حسب الإمكان[٢] .

تعزيز السلطان

وهنا عاد الكواكبى إلى الكتب المقدسة فنقل من التوراة الحديث النبوى ، وختم بالقرآن الكريم ليبسط الآراء فى الاستبداد ، وخطأ العامة فى فهمها وتفسيرها وتأويلها مما يشجع المستبد ويعزز السلطان ، وهذه النقول كذلك ألصق بكتب السياسة القديمة ، يقول :

وكلُّ هذه المسليات المثبطات[٣] تَهُون عندَ ذلك السُّم القاتِل الذى يُحَوِّلُ الأذهانَ عن التماسِ معرفةِ سببِ الشَّقاء ، فيرفع المسؤليَّة عن المستبدين ويُلْقيها على عاتق القضاء والقَدَر ، بل على عاتقِ الأسراء المساكين أنفسِهم . وأعنى بهذا السُّمِّ سوءَ فهمِ العوامِّ ، وبُلْهِ الخواص لما ورد فى التَّوْراة من نحو : « اخضعوا لِلسُّلْطان ولا سلطةَ إلاَّ من الله » و « الحاكم لا يتقلَّدُ السَّيْفَ جُزافاً إنَّه مُقام الانتقامِ من أهل الشَّر » ، ولما ورد فى الرسائلِ من نحو : « فلتُصْغِ كلُّ نسمة السُّلْطة المقامة من الله »

---

(١) أسماء بنت أبى بكر من قريش ، صحابية من فضليات نساء العرب وهى أم عبد الله ابن الزبير بن العوام ، توفيت بمكة ٧٣ هـ ، وسميت ذات النطاقين لأنها صنعت للنبى المصطفى طعاماً حين هاجر إلى المدينة ، فلم تجد ما تشده به فشقت نطاقها وشدت به الطعام .

(٢) « طبائع الاستبداد » ، ص ٣٦ .

(٣) ثبطه ثبطاً وثبطه تثبيطاً : عوقه عن الأمر وبطأ به عنه .

وقد صاغ وعاظُ المسلمين ومحدّثُوهم من ذلك قولهم : «السُّلْطانُ ظِلُّ اللهِ فى الأَرض» و «الظَّالم سيفُ الله يَنْتَقِمُ به ثم ينتقم منه» و «الملوك مُلْهَمُون» . هذا وكلّ ما ورد فى هذا المعنى – إن صَحَّ – فهو مُقَيَّدٌ بالعدالةِ أو مُحْتَمِلٌ للتَّأْويل بما يعقل ، وما ينطبقُ على حكم الآية الكريمة التى فيها فصل الخطاب وهى ﴿أن لَعْنَةُ اللهِ على الظَّالِمِين﴾[1] وآية : ﴿فلا عُدْوَان[2] إلاَّ على الظَّالِمِين﴾[3] .

الأتراك والعرب

ويلاحظ الكواكبى أن جميع الأعاجم التى قامت لهم دول فى الإسلام كآل بويه والسلجوقيين والأيوبيين والغوريين والجراكسة وآل محمد على استعربوا وتخلقوا بأخلاق العرب . ولم يشذ منهم غير المغول أى الأتراك العثمانيين فإنهم يفخرون بمحافظتهم على استتراكهم ، ولم يقبلوا أن يستعربوا ، وإنما قبلوا أن يصبحوا فرنسيين وألماناً ، وسبب ذلك كرههم العرب ، فقد كان الأتراك شجعاناً مقاتلين ولم يكونوا ساسة عادلين فزادوا العالم الإسلامى تدهوراً وظلاماً وجهلا وظلماً وفقراً ، كما قال الأستاذ أحمد أمين ، بل إنهم احتقروا العرب وتناولوهم بالسباب ونبذوهم بالألقاب مما ننقل بعضه هنا :

ولا يُعْقَلُ لذلك سبَبٌ غيرُ شديدِ بغضهم للعرب كما يُسْتَدَلُّ عليه من أَقْوالِهم التى تَجْرِى على أَلسنَتِهِمْ مَجْرَى الأَمثال فى حَقِّ العرب .

ذلك كإطلاقِهِمْ على عربِ الحجاز «ديلنجى عرب» أى العرب الشَّحَّاذين ، وإطلاقهم على عرَبِ المصريين «كورفلاح» بمعنى الفلاَّحين الأَجلاف ، «وعرب جكنه سى» أى نَوَر العرب ، و «قبطى عرب» أى النوْر المصريين ، وقولهم عن عرب سوريا «نه شامك شَكَرى

(١) «القرآن الكريم» – سورة الأعراف ٧/٤٤ ، وقد كانت فى الأصل : «ألا لعنة» وهو تصحيف .

(٢) فى رسم الآية هنا تصحيف كذلك : «ولا عدوان» وصحتها كما رسمنا – «القرآن الكريم» سورة البقرة ٢/١٩٣ .

(٣) «طبائع الاستبداد» ، ص ٩٠ .

ونَهْ عربِك يُوزِى » أى « دع الشام وسكّرياتها ولا ترَ وجوهَ العرب » وتعبيرهم بلفظة « عرب » عن الرقيق وعن كل حيوانٍ أسود . وقولهم « بِيس عرب » أى عرب قذر ، و « عرب عقلى » أى عقل عربىّ ، أى صغير . و « عرب طبيعتى » أى ذوق عربى ، أى فاسد ، و « عرب چكه سى » أى حنك عربى ، أى كثير الهذر . وقولهم « بونى بيارسه م عرب أوله يم » أى إنْ فعلتُ هذا أكنْ من العرب . وقولهم « نَرْدَه عرب نَرْدَه طنبوره » أى أين العرب من الطنبور !

هذا والعرب لا يقابلونهم على كلّ ذلك بسوى كلمتين هى قول العرب فيهم : « ثلاثٌ خُلِقْنَ للجوْر والفَسَاد : القملُ والتُّركُ والجَراد » . والكلمة الثانية تسميتهم بالأَروام كناية عن الريبة فى إسلامهم . وسبب الرّيبة أن الأَتْراك لم يخدموا الإسلام بغير إقامة بعضِ جوامعَ لولا حظّ نفوس ملوكهم بذكرِ أسمائهم على منابرِهم لم تقم . وأنّهم أتوا الإسلام بالطّاعةِ العمياء للكبراء ، وبخشية الفلك أبى المصائب ؛ وباحترام مواقد النيران (أو جاقات) فزادوا بذلك بلاّت فى طينِ الخُرافات[1] .

موطن قريش

أحب الكواكبى أمة العرب حباً جماً ملك عليه لبه ، وعشق الجزيرة العربية التى انطلقوا منها فاتحين حتى استهوته فسافر إليها وتنقل فى ربوعها ، ورأى فيها موطن العزة والكرامة والأمجاد ، فسعى إلى أن يجتمع فيها رجال المسلمين من كل قطر وأن يتشاوروا فى أمرهم لكل حين ، وعقد اجتماعاته فى كتابه بمكة ، وجعل عنوانه « أم القرى » دليلا على هذا الحب وهذه السياسة التى يكاد ينفرد بها بين معاصريه من الزعماء المصلحين والكتاب المفكرين ؛ فهو لا يرى للمسلمين عوداً إلى

---

(١) « أم القرى » ، ص ٧٨ .

أمجادهم إلا إذا كانت الخلافة فى العرب وفى مكة المكرمة ، ولذلك أرسل هذا النشيد الجميل فى مدحها يتغنى به قلبه وتتنفس به ضلوعه :

١ ـ الجزيرةُ . هى مشرقُ النُّور الإسلامى .

٢ ـ الجزيرة . فيها الكعبةُ المعظَّمة .

٣ ـ الجزيرةُ . فيها المسجِدُ النبوىّ وفيه الرَّوضة المطهَّرة .

٤ ـ الجزيرة . أنسبُ المواقعِ لأَن تكون مركزًا للسِّيَاسةِ الدينيّة لتوسّطها أقصى آسيا شرقاً وأقصى أفريقية غرباً .

٥ ـ الجزيرة . أَسْلَمُ الأَقاليمِ من الأَخْلاطِ الجنسيّة أديانًا ومذاهب .

٦ ـ الجزيرة . أبعدُ الأَقاليمِ عن مجاورةِ الأَجانب .

٧ ـ الجزيرة . أَفضلُ الأَراضى لأَن تكونَ ديارَ أحرارٍ لبعدها عن الطَّامعين والمزاحمين نظرًا لفقْرِها الطبيعى .

٨ ـ عربُ الجزيرة . هم مؤسِّسو الجامعة الإسلامية لظهور الدين فيهم[1]

٩ ـ عربُ الجزيرة . ستحكمُ فيهم التخلُّقُ بالدِّين لأَنه مناسبٌ لطبائعهم الأَهلية أكثَر من مناسبتهِ غيرهم .

١٠ ـ عربُ الجزيرة . أَعْلَمُ المسلمينَ بقواعدِ الدِّين لأَنهم أَعْرَقُهم فيه ، ومشهودٌ لهم فى أَحاديثَ كثيرَة بالمتانة فى الإيمان .

١١ ـ عربُ الجزيرة . أَكثرُ المسلمينَ حِرصاً على حفظِ الدِّين وتأْييدِه والفَخارِ به ، والعصبيَّة النَّبويّة لم تزل قائمةً بين أَظهرِهم فى الحجازِ واليمن وعمان وحضرمَوْت والعراق وأفريقيا .

(١) كذلك من يتبعهم من العشائر القاطنة بين الفرات ودجلة والنازحين إلى أفريقيا .

١٢ ـ عربُ الجزيرة . لم يزل الدين عندهم حنيفاً سلفيا بعيدًا عن التَّشديدِ والتَّشويش .

١٣ ـ عربُ الجزيرة . أقوَى المسلمين عصبيَّةً وأشدّهم أَنَفَةً لما فيهم من خصائصِ البدوية[١] .

١٤ ـ عربُ الجزيرة . أمراؤهم جامِعُون بين شرَفِ الآباء والأُمَّهات والزَّوجات فلم تختلّ عزَّتهم .

١٥ ـ عربُ الجزيرة . أهدمُ الأُمم مدنيَّةً مهذَّبةً بدليل سعة لغتهم وسموّ حكمتهِم وأدبيَّاتِهم .

١٦ ـ عربُ الجزيرة . أَقْدَرُ المسلمين على تحمل قشفِ العيشة فى سبيلِ مقاصدهم ، وأنشطهم على التغرُّب والسِّياحات ، وذلك لبُعْدِهم عن التَّرَفِ المُذِلِّ أَهْلَه .

١٧ ـ عربُ الجزيرة . أَحْفَظُ الأَقوامِ لجنسيَّتهم وعاداتِهم ، فهم يخالطُون ولا يختلطون .

١٨ ـ عربُ الجزيرة . أَحْرَصُ الأُمم الإسلاميَّة على الحرّيّة والاستقلال وإباء الضَّيْم[٢] .

١٩ ـ العربُ على الإطلاق . لغتُهم أَغْنَى لغاتِ المسلمين فى المعارف ومصونة بالقرآن الكريم من أن تموت .

٢٠ ـ العربُ .لغتُهم هى اللغة العموميَّة بين المسلمين البالغ عددهم ٣٠٠ مليون .

---

(١) وبقوة ذلك لا يزالون يأخذون خراجاً ممن يأخذون باسم هدية .

(٢) هذا هو سبب عدم انقياد أهل اليمن ومن يليهم العثمانيين .

٢١ ـ العربُ . لغتهُم هى اللّغةُ الخصوصية لمائةِ مليون من المسلمين وغير المسلمين .

٢٢ ـ العربُ . أَقْدَمُ الأُمم اتباعاً لأُصولِ تساوى الحقوق وتقارب المراتِب فى الهيئة الاجتماعيَّة .

٢٣ ـ العربُ . أَعْرَقُ الأُممِ فى أصولِ الشُّورَى[1] فى الشُّئون العموميَّة[2] .

العثمانيون والدين

استعرض الكواكبى تاريخ العثمانيين وما فعلوه فى المسلمين شرقاً وغرباً ، فجمع مخازيهم ومظالمهم . وبرهن بالوقائع والشواهد على قعودهم عن نصرة الإسلام وعدوانهم عليهم من الأوربيين المستعمرين ، وذلك ليدلل على أن الخلافة يجب أن لاتكون تحت لوائهم وخلافتهم ، وأنهم لايصلحون أن يكونوا إخواناً مخلصين للمسلمين لأنهم لم يكونوا كذلك فى تاريخهم كله . وقد عدد الأسماء من السلاطين العثمانيين فى جرأة وصراحة ليزيل آخر وتد لهم فى الممالك الإسلامية ، فذهبت صيحاته بهم ، وشهد له التاريخ أنه الكاتب السياسى البليغ والمؤرخ المفكر والمصلح الذى يحب قومه ويكره من يكيد للعرب والمسلمين ، فقال على لسان أحد الأمراء فى لاحقة كتابه :

قال الأَمير : أَرجوكَ أَن لا تنظرَ للمسأَلةِ بنظَرِ العوامّ ، بل بنظرِ حكيمٍ سياسى . فَأَبْعِدِ النَّظرَ ماضياً ومستقبلاً ، وقلِّب صفحاتِ التاريخ بدقَّةٍ تجِدْ أَنَّ إدارةَ الدِّين وإدارةَ الملك لم تتَّحدا فى الإسلامِ تماماً إلَّا فى عهدِ الخلفاء الرَّاشدين وعمرَ بنِ عبدِ العزيز فقط. ، رضى الله عنهم . واتَّحدتا نوعاً ما فى الأُمويِّين والعباسيين ثم افترقت الخلافةُ عن الملك . وأَما سلاطين آل عثمان الفخام فإنِّى أَذكرُ لك أنموذجاً من أَعمالٍ لهم

(١) يشهد لهم بذلك القرآن فى قصة بلقيس مع سليمان عليه السلام إذ قالت تخاطب الملأ المستشارين .

(٢) « أم القرى » ، ص ٩٨ – وتقابل هذه الصفحة بما كتب رشيد رضا فى كتابه « الخلافة » ص ٧٣ .

أتَوْها رعايةً للملك وإنْ كانَتْ مصادمةً للدِّين . فأقول : هذا السُّلطان محمد الفاتح وهو أفْضَلُ آلِ عثمان قد قَدَّم الملكَ على الدِّين ؛ فاتَّفَق سِرًّا مع « فرديناند[1] » ملك « الأراغون[2] » الإسبانيولى ثم مع زوجته « إيزابيلا » على تمكينهما مِنْ إزالةِ مُلْكِ بنى الأحمر ، آخرِ الدُّوَل العربيّة فى الأندلس . وَرضىَ بالقتلِ العامّ والإكراهِ على التنصّر بالإحراق ، وضياع خمسة عشر مليوناً من المسلمين بإعانتهما بإشغالهِ أساطيلَ أفريقية عن نجْدَةِ المسلمين . وقد فعلَ ذلك فى مقابلةِ ما قامت له به « رومية » من خذلان الإمبراطوريّة الشّرقيّة ، عند مهاجمتِه مقدونيا ثم القسطنطينية. وهذا السّلطان « سليم » غدر بآل العبّاس واستأصلهم حتى إنّه قَتَل الأمهات لأجل الأجِنّة . وبينما كان هو يقتلُ العربَ فى الشّرق كان الإسبانيُّون يُحرِّقون بقيَّتَهم فى الأندلس . وهذا السُّلطان « سليمان » ضايق إيرانَ حتّى ألجأهم إلى إعْلان الغلو بالرَّفْضِ ؛ ثم لم يقبل العثمانيُّون تكليف « نادر شاه » لرفعِ التفرقة بمجرد تصديق مذهب الإمام جعفر ، كما لم يقبلوا من « أشرف خان » الأفغانى اقتسامَ فارس كى لا يجاورَهم ملكٌ سنِّىٌّ . وقد سَعَوْا فى انقراضِ خَمْسَ عَشْرَة دولة وحكومة إسلامية ، ومنها أنهم أغْرَوْا وأعانوا الروس على التّتار المسلمين ، وهولاندة على الجاوة والهنديين . وتعاقبوا على تَدْويخِ اليمن فأهلكوا إلى الآن عشراتِ الملايين من المسلمين ، يقتل بعضُهم بعضاً ، لا يحترمون فيما بينهم ديناً

(١) فرديناند الخامس ويسمى الكاثوليكى ، ملك أراغون وقشتالة من ١٤٦٨ – ١٥١٦ ، سياسى محنك تزوج إزابيلا ليجمع شبه الجزيرة الإسبانية ، وهو الذى حارب العرب واستولى على غرناطة .

(٢) الأراغون Aragon مقاطعة فى الشمال من إسبانيا عاصمتها سرقسطة .

ولا أخوّةً ولا مروءة ولا إنسانية ؛ حتى إن العسكرَ العثمانى باغَتَ المسلمين مرّةً فى «صنعاء» و «زبيد» وهم فى صلاةِ العيد .

وهذا السّلطان «محمود» اقتبسَ عن الإفرنجِ كسوتَهم ، وألزم رجالَ دولته وحاشيته بلبسها ، حتى عَمَّتْ أو كادتْ . ولم يشأ الأتْراك أن يغيّروا منها الأكمامَ رعايةً للدِّين ، لأنها مانعةٌ من الوضوء أو معسرة له . وهذا السلطان «عبد المجيد» رأى من مؤيّدات إدارةِ ملكه إباحةَ الربا والخمور وإبطالَ الحدود . ورأى مصلحته فى قهْرِ الأشراف وإذلال السّاداتِ بإلغاء نفوذِ النِّقابات ففعل .

وفى هذا المقدارِ كفايةٌ لإيضاح قاعدة أنَّ مويدات الملك عند السّلاطين مُقَدَّمٌ على المحافظة على الدِّين[1].

السلطان العثمانى

وصف الكواكبى حال الأمة الإسلامية وممالكها وملوكها بدقة المؤرخ السياسى الحاذق ، ورسم القوم الذين يحيطون بالسلطان العثمانى فى خداعهم وتملقهم وتزلفهم واختلاقهم الألقاب واختراعهم الأنساب حتى لقد نقل ما كان من كذبهم على التاريخ الإسلامى ، حين جعلوا نسبة الأتراك إلى قريش لتكون الخلافة فيهم . وقد حدث ذلك فى كثير من ظروف تاريخنا وكان يحدث إلى وقت قريب . ولكن مؤلفنا مزق الحجب والأستار وأوضح الزائف والمدسوس ليكون العرب على بينة من أمر خلافتهم وسلاطينهم ، وفى ذلك جرأة المصلح وصيحة الزعيم المخلص ، يقول :

وهؤلاءِ الغشَّاشُون يُغْرُونَ حضرة السُّلطان بهذه الدعوى ، بما يهرفُونَ به عليه ، وبما يؤلّفونه هم وأعوانُهم من الكتب والرَّسائل ، التى يعزُون[2] بعضَها لأنفسهم وبعضَها لغيرِهم من المنافقين ، أو لأسماء يُسَمُّونها ، أو كتب

(١) «أم القرى» ، ص ١٠٣ .
(٢) عزا إليه كذا : نسبه .

يختلقونَها . فيجعلونَ تارةً آلَ عثمانَ العِظام يتَّصلون نسباً بعثمان بن عفَّان – رضى الله عنه – وأُخْرى يرفعون نسبَهم إلى أعالى قُريش ، ويعطُونها حقَّ الخلافة مرّةً بالتَّنازل والإدلاء من العباسيين ، وأُخرى بالاستحقاق والوراثة ، وآونةً بالعهد ، وأُخرى بالبَيْعة العامة ؛ وحيناً بخدمة الحرمَيْن الشَّريفَيْن ، ووقتاً بحفظ المخلَّفات النبويّة . وكأنَّ هولاء الغشَّاشين يُريدون بهذه الدَّسائسِ أن يجعلوا حَضرةَ السُّلْطان نظيرَهم دعىٌّ نسبٍ كاذب كدعواهم لأنفسهم السِّيادة ، ومتسنَّم مقامٍ موهومٍ كدعواهم الولاية والقطبانية فى أنفسِهم وآبائِهم وأجدادِهم ، فيحشونَ فى تلك المولَّفاتِ أنساباً انتحلُوها لأنفسهم ، مقرونةً بنسب السُّلْطان . ويستطردُون لحكاياتِ كراماتٍ لأجدادهم ملفَّقةً مخترعةً لا يَعْتَرِفُ بها لهم أحدٌ من المسلمين ، يدسّونها بين حكايات وقائعِ الخلفاء والسَّلاطين .

ومن المعلومِ عند أهلِ الوقوف أن التلقّبَ بالخلافة أو الإمامة الكبرى ، أو إمارة المؤمنين فى آل عثمان العِظام ، حَدَثَ فى عهد المرحوم السلطان « محمود » إذْ صار بعضُ وزرائِه يخاطبونَه بذلك أحياناً تفنُّناً فى الإجلال ؛ وغَلَوْا فى التَّعْظِيم . ثم توسَّع استعمالُ هذه الألقابِ فى عهد ابنَيْه وحفيدَيْه ، إلى أن بلغ ما بلغه اليوم بسعى أولئك الغشَّاشين الذين يدفعون ويقودون السُّلْطان الحاضر للتنازل عن حقوقٍ راسخةٍ سلطانية ، لأجل عنوان خلافة وهميّة مقيّدة ، فى وضعها بشرائطَ ثقيلةٍ لا تلائمُ أحوالَ الملك ، ومعرضة بطبعها للقلقلةِ والانتزاعِ والخطر العظيم . ولذلك لا يزال السَّلاطينُ أنفُسهم إلى الآن يأبَوْن التلقُّب بالخلافة رسميًّا فى منشوراتهم ومسكوكاتهم ؛ وإنما

تمضغُها أفواهُ البعض فيلوكها التركىْ تعظيماً لقومه ، والعربىّ نفاقاً لسلطانه ، والمصرىُّ اتباعاً للمرائين ، والهندى اعتزازًا بالوَهْم ، والأجنبى هزؤًا ومكرًا ، بخلاف سلطان مراكش وأمير عمان ، وإمام اليمن المتنازعين فى هذا المقامِ رسماً ، المتقاطعين لأجله . على أنَّهم قد شعروا أو كادوا يشعرون بضررِهم السياسىّ فى ذلك . ولا نعلمُ متى يخلق الله مَنْ يَسْعى فى إقناعهم جميعاً بِتَرْك هذه الدَّعوى الدَّاعية للانفرادِ والتَّخاذُل ويرتِّب بينهم قواعدَ محافظةِ الاستقلال السياسى ومراسم التَّشريفات والمخاطبات وروابطِ التَّعاون والاتحاد ، بصفة سلاطين وأمراء كما آل إليه الأمرُ على عهد الخلفاء العباسيين مع السلاطين الخارزمية والدَّيْلَم والأيوبيِّين ، وغيرهم[1].

٣ ـ الكواكبى الاجتماعى

الإنسان والمدنية

تعمق الكواكبى فى فلسفة الاجتماع فنظر إلى الإنسان والحيوان ، ووازن بينهما فانتهى إلى إيثار الحيوان لأنه يحب أخاه ، والإنسان يأكل لحم أخيه الإنسان ، وضرب الأمثلة الطيبة على ذلك فاستعرض تاريخ القربان والذبيحة ، والقبائل المتوحشة فقال :

إنَّ النِّظامَ الطبيعى فى كلِّ الحيوانات حتَّى فى السَّمك والهوام إلا العنكبوت بعد إخصابه أنَّ النوعَ الواحدَ منها لا يأْكلُ بعضُه بعضاً ؛ والإنسان يأْكلُ الإنسانَ . ومن غريزتها أن تلتمسَ الرِّزقَ من الله أى مِنْ مَوْرده الطبيعىّ ، والإنسان حريصٌ على التماسه مِنْ أخيه .

عاش الإنسانُ دهرًا طويلاً يأْكلُ لحمَ الإنسان فعلاً إلى أن تمكَّنَ

---

(١) « أم القرى » ص١٠٥ .

حكماءُ الصّين والهند من إبْطالِ أكل اللّحم كلّيًّا ، وإلى أن جاءتِ الشّرائعُ الدينيّةُ الأُولى فى الجهاتِ السّائرة ابتداءً بتخصيصِ ما يُؤْكل من الإنسان بالقربان الذى يُذْبَحُ للمعبود . ثم أبقتِ القربانَ وجعلتِ الذّبيحةَ طُعْمةً للنّيران حَتَّى تَدَرَّج الإنسانُ إلى نِسْيان لَذَّة لحم إخوانه . وقد استبدلَ اللهُ ـ عَزَّ شأنُه ـ على يد إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قربانَ البشر بالحيوان . واتّبعه موسى وباقى الأنبياء ـ عليهم السّلام ـ وبه جاء الإسلامُ . أمّا عيسى ـ عليه السلام ـ فإنّه استعاض قربانَ الحيوان بالخُبْز ؛ ولكنْ بقى ذلك مقصورًا على الكنائس ولم يعمّ .

وهكذا بطل أكلُ الإنسان لحمَ الإنسان ، إلّا عندَ بعضِ قبائلِ الزُّنوج ، فإنّه موجودٌ حتى الآن . على أن الاستبدادَ المشئوم أحْيَا سُنَّةَ أكلِ البشر بشكلٍ أدهى وأمَرّ . وذلك أنّه جعلَ الأقوامَ طُعْمَةً للظّالمين ، فكان الأوّلون يَذْبحون ويأكلون مَنْ يأسرون مِنْ أعدائهم فقط . المستبدّون يأسرون جماعتَهم ويَذْبحونهَم قصدًا بمِبْضَع الظلم ، ويمتصّون دماء حياتهم بِغَصْبِ أموالهم ، ويقصرون أعمارَهم باستخدامهم سخرةً فى أعمالهم ، أو بغَصْب ثمراتِ أتعابهم ، وهكذا لا فرْقَ بين الأوّلين والآخرين فى نَهْب الأعمار وإزهاق الأرواح إلّا فى الشّكل[1].

---

(١) « طبائع الاستبداد » ، ص ٥٢ .

الاستبداد والمرأة

نقد المؤلف كل ما كان فى مجتمعه الفاسد ، ولم يغفل عن حال المرأة فى عصره ، فهى نصف البشر وهى قوام الرجل وموضع رفعته أو انحطاطه ، لذلك رأى لها من الحقوق ما لا يرى أعمق التقدميين المصلحين اليوم فقال :

إنَّ البشرَ المقدَّرَ مجموعٌ بألفٍ وخمسمائة مليون ، نصفُهم كَلٌّ على النِّصْف الآخر . ويشكّل أكثريّةُ هذا النِّصف نساءَ المدن ، والنِّساءُ هنَّ النَّوْعُ الذى عُرف مقامُه فى الطبيعةِ بأنَّه هو الحافظُ لبقاءِ الجنس ، وأنَّه يَكفى الألفِ منه مُلَقِّحٌ واحدٌ . وأنَّ باقى الذُّكورِ يُساقون للمخاطِر والمشاقّ ، أو يستحقُّون ما يستحقُّه ذَكَرُ النَّحْل . وبهذا النظر اقتسم[1] النِّساءُ مع الذُّكورِ أعْمالَ الحياة قِسْمةً ضِيزَى[2] ، وتحكمن بسنّ قانونٍ عام به جعلنَ نصيبهن هَيِّنَ الأشغالِ بدعوى الضَّعْف . وجعلنَ نوعَهن مطلوباً عزيزًا بإيهام العفَّة ، وجعلنَ الشَّجاعةَ والكَرم سيِّئتين فيهن ، محمدتين فى الرِّجال ، وجعلن نوعَهن يُهين ولا يُهان ويَظْلِم أو يُظْلَمُ فَيُعَان . وعلى هذا القانون يربُّون البناتِ والبنين . ولهذا سمَّاهم بعض الأخلاقيِّين بالنِّصْف المضرّ ، وقال : إنَّ الضَّررَ يترقَّى مع الحضارة والمدنيّة على نسبةِ الترقّى المضاعف ، فالبدويّةُ تسلبُ الرجل نصفَ ثمرة أعماله ، والحَضَريَّةُ[3] تسلبُ اثنين من ثَلاثة ، والمدنيةُ تسلبُ خمسةً من ستة ، وهكذا تترقَّى بنتُ العواصم[4] .

---

(١) فى الأصل : « اقتسمن » .
(٢) قسمة ضيزى : ناقصة جائرة .
(٣) الحضرية : ساكنة الحضر ، خلاف البادية .
(٤) طبائع الاستبداد ، ص ٥٤ .

المرأة

شغلت المرأة من تفكير مؤلفنا حيزاً كبيراً فكتب فيها كثيراً ، وقد رأينا كلمته فى « طبائع الاستبداد » ، وهو هنا يرى تعليم النساء لأن العلم لا يدعو إلى الفجور ، والجهل لا يدعو إلى العفة ، وبسط أثر المرأة فى الرجل ومكانها فى التاريخ ووضعها من التربية وقدرتها فى تسيير ركب النهضة الإسلامية قديماً وحديثاً . ثم رسم حقوقها وواجباتها وموقف الزوج منها فقال :

إنَّ لانحلالِ أخلاقِنا سبباً مهمًّا آخرَ أيضاً يتعلَّق بالنِّساء . وهو تركُهنَّ جاهلاتٍ على خلافِ ما كان عليه أسلافُنا ، حيثُ كانَ يوجَدُ فى نسائِنا كأُمِّ المؤمنين عائشة – رضى الله عنها – التى أخذنا عنها نصفَ علومِ ديننا ؛ وكمئاتٍ من الصحابيّاتِ والتَّابعيّاتِ راوياتِ الحديث ، والمتفقِّهات فضلاً عن ألوفٍ من العالماتِ والشَّاعرات الَّلاتى فى وجودِهنَّ فى العهدِ الأول بدون إنكار حجَّةٌ دامغةٌ تُرغم أنفَ غَيْرة الَّذين يزعُمُون أنَّ جهلَ النِّساء أَحْفَظُ لعفَّتهنَّ ، فضلاً عن أنَّه لا يقومُ لهم برهانٌ على ما يتوهَّمُون ، حتى يصحَّ الحُكْمُ بأنَّ العلمَ يدعو للفجُور ، وأنَّ الجهلَ يدعو للعِفَّة . نعم ، ربّما كانت العالمةُ أقْدَرَ على الفُجُور من الجاهلة . ولكن الجاهلةَ أجْسَرُ عليه من العالِمَة ثم إنَّ ضررَ جهلِ النِّساء وسوءَ تأثيرِه فى أخلاقِ البنينَ والبنَات أمرٌ واضحٌ غَنِىٌّ عن البَيَان ؛ وإنَّما سوءُ تأثيرِه فى أخلاقِ الأزواجِ فيه بعضُ خَفاءٍ يستلزمُ البَحْثَ ، فأقول :

إنَّ الرِّجالَ ميَّالُون بالطَّبْع إلى زوجاتِهم . والمرأة أقْدَرُ مطلقاً من الرَّجُل فى مَيْدانِ التَّجاذُب للأخلاق . ولا يتوهَّمُ عكسَ ذلك إلَّا مَن اسْتَحْكَم فيه تغريرُ زوجتِه له ، بأنَّها ضعيفةٌ مسكينةٌ مُسَخَّرةٌ لإرادتِه ، حالَ كونِ حقيقةِ الأمرِ أنَّها قابضةٌ على زِمامِه تَسُوقُه كيفَ شاءت . وبتعبير آخرَ ،

يغرُّه أنَّه أمامَها وهي تتبعُه ، فيظنُّ أنَّه قائدٌ لها ؛ والحقيقةُ التي يراها كلُّ النَّاس مِنْ حولِهما دونَه أنَّها إنَّما تَمْشي وراءَهُ بصفةِ سائقٍ لا تابع . وما قَدَرَ قَدْرَ دَهاء النِّساءِ مثلُ الشَّريعة الإسلاميَّة ، حيثُ أَمَرَتْ بالحجْبِ والحجْرِ الشرعيَّين ، حَصْرًا لسلطتهنَّ وتفرّغهنَّ لتدبيرِ المنزل . فأمرتْ باحتجابِهنَّ احتجاباً محدودًا بعدم إبداء الزِّينة للرِّجالِ الأَجانِب ، وعدمِ الاجتماع بهم في خَلْوَة أو لغيرِ لزوم . وأمرت باستقرارهنَّ في البيوتِ إلَّا لحاجةٍ ، ولا شكَّ أنَّه ما وراء هذه الحُدود إلَّا فتْح بابِ الفجور . وما هذا التَّحْديد إلَّا مرحمةً بالرِّجال وتوزيعاً لوظائفِ الحياة .

والصِّينيُّون وهم أَقْدَمُ البشَر مدنيَّةً التزمُوا تصغيرَ أَرْجُلِ البَنات بالضَّغْطِ عليها لأَجلِ أن يعسرَ عليهنَّ المشْي ، والسَّعْي في إفسادِ الحياةِ الشَّريفة . ذاك الشَّرَف الذي هو من أهم مقاصدِ الشرقيِّين بخلاف الغربيِّين ، الذين لا يهمُّهم غيرُ التوسّعِ في الماديَّات والملذَّات .

وقد أَمَرتِ الشَّريعةُ برعايةِ الكفاءة في الزَّوج وذلك أيضاً مرحمةٌ بالرِّجال . وأكثرُ الأئمَّة المجتهدين أَغْفَلُوا لزومَ تحرِّي الكفاءة في جانبِ المرأةِ للرَّجُل ؛ وأوجبوا أن يكونَ هو كفوًّا لها فقط . لكيلا تهلكه بفخارِها وتحكّمها ، على أنَّ لرعايةِ الكفاءة في المرأة بالنِّسْبة إلى الرَّجُل أيضًا موجباتٍ عائليةً مهمةً : منها التخيّر للاستسلام ، والتخيّر لتربيةِ النَّسل ، وللتَّساهل في ذلك دخلٌ عظيمٌ في انحلالِ الأَخلاق في المدن ، لأَن التزوُّج بمجهولاتِ الأُصولِ أو الأَخلاق ، أو بسافلاتِ الطِّباعِ والعادات ، أو بالغريبات جنساً أو الرَّقيقاتِ ، مفاسد شتَّى . لأَن الرَّجُل ينجرُّ طوعاً

أو كرهاً لأخلاق زوجتِه ، فإنْ كانت سافلةً يتسفَّلُ لا محالة ، وإنْ كانتْ غريبةً بَغَّضَتْ إليه قومَه ، وجرَّتْه إلى موالاةِ قومِها ، والتخلّق بأخلاقهم . ولا شك أنَّ هذه المفسَدةَ تستحكمُ فى الأولادِ أكثر من الأزواج .

وَرُبّما كان أكبرُ مسبّبٍ لانحلالِ أخلاقِ الأمراء من المسلمين أتاهم من جهةِ الأمَّهات والزوجات السَّافلات . إذْ كيف يُرجى من امرأةٍ نشأتْ سافلةً رقيقةً ذليلة[1] أن تتركَ بَعْلَها[2] وهو فى الغالبِ أطوعُ لها من خَلْخَالِها أن يُجيبَ داعىَ شهامةٍ أو مروءة أو أن تغرز فى رووس صِبْيَتِها مقاصدَ ساميةً ، أو تحمّسهم على أعمالٍ خطرة . كلَّا لا تفعلُ ذلك أبدًا . إنَّما تفعله الشَّريفاتُ اللاتى يجدنَ فى أنفسهن عزَّةً وشهامة[3] ، وهذا هو سرّ أنَّ أعاظمَ الرِّجال لا يوجدون غالباً . إلَّا من أبناء وبعولِ نسوةٍ شريفاتٍ أو بيوتٍ قروية . وهذا هو سبب حرص أمراء العرب والإفرنج على شرف الزوْجات[4] .

---

(١) كالكرجيات الأرمنيات والرقيقات الجركسيات أمهات أكثر الأمراء وزوجاتهم .

(٢) بعلها : زوجها .

(٣) كبنات بيوت المجد الحريصات على الفخر وبنات أهل البادية والقرى الأبيات النفوس . نقلنا هذا من هامش الأصل .

(٤) « أم القرى » ، ص ٨٢ .

توزيع الأراضى

أقام الكواكبى للعدالة الاجتماعية صرحاً منيفاً فى كتابه لبنة بعد لبنة ، ومال إليها بجوانحه ، فتطرق إلى الظلم الذى كان يلف الشرقيين ووصفه وصفاً دقيقاً ، وخاصة توزيع الأراضى ، إذ رأى فيه إجحافاً بالفقراء والفلاحين والعمال والصناع فنادى بما تنادى به أرقى الدساتير وأحدث الأنظمة حتى ليأخذ بأساليب الاشتراكية العاقلة ، ويضرب الأمثلة لذلك من التاريخ ، فكأنه من أئمة الإصلاح فى العالم كله لا فى الشرق وحده فيقول :

ثُمَّ إنَّ التموُّلَ لأجلِ الحاجاتِ السَّالفة الذكر وبقدرها فقط محمودٌ بثلاثةِ شروط ، وإلَّا كان حرصُ التموُّل من أقبح الخِصال . الشَّرْطُ الأول : أن يكونَ إحرازُ المال بوجهٍ مشروعٍ حَلال ، أى بإحرازه مِنْ بذْلِ الطبيعة أو بالمعارضة ، أو فى مقابل عملٍ ، أو فى مقابلِ ضَمان .

والشَّرْطُ الثَّانى : أنْ لا يكونَ فى التموُّل تضييقٌ على حاجياتِ الغير كاحتكارِ الضروريات أو مزاحمةِ الصَّناعِ والعمّال الضعفاء أوالتغلب على المباحاتِ مثل امتلاكِ الأراضى التى جعلها خالقُها مراحاً[1] لكافة مخلوقاتِه وهى أُمُّهم تُرضِعُهم لبنَ جهازاتها ، وتغذِّيهم بثمراتِها وتأْويهم فى حِضن أجزائها ، فجاء المستبدُّون الظالِمُون الأوّلون ووضعُوا أصولاً لحمايتِها من أبنائِها ، وحالوا بينهما . فهذه إيرلاندة مثلاً ، قد حماها ألفُ مستبدّ مالى من الإنكليز ليتمتَّعوا بثُلُثَىْ أو ثلاثة أرباعِ ثمرات أنعاب عشرة ملايين من البشَر ، الذين خُلقوا من تُرْبَةِ إيرلاندة . وهذه مصرُ وغيرُها تقربُ من ذلك حالاً ، وستفوقها مآلاً . وكم من البشَر فى أوربّا المتمدنة وخصوصاً فى لندرة ، لا يجدُ أحدُهم أرضاً ينامُ عليها متمدّدًا ،

(١) فى الأصل : ممزجاً ، ولعلها مصحفة ، وصحيحها ما رسمنا .

بل ينامُون فى الطَّبَقَة السُّفْلَى ، حيثُ لا ينامُ البقَر ، وهم قاعدون صفوفاً ، يعتمدُون بصدورِهم على حبالٍ من مَسَد[١] منصوبةٍ أفقيّة ، فيتلوّون عليها بمنةٍ ويسرة .

وحكومة الصّين ، المختلَّة النِّظام فى نظر المتمدنين ، لا تجيزُ قوانينُها أن يمتلكَ الشَّخص الواحدُ أكثرَ من مِقْدارٍ معيَّنٍ مِن الأَرض ، لا يتجاوزُ العشرين كيلو مترًا مربّعاً ، أى أقلّ مِنْ خمسة أفدنة مصرية . وروسيا المستبدّة القاسيةُ ، فى عُرْف أكثر الأوربيين ، وَضَعَتْ أخيرًا لولايتها البولونية والغربية قانوناً ، أشبه بقانون الصّين ، وزادت عليه أنَّها مَنَعَتْ سَمَاعَ دَعوى دَيْنٍ غَيْرِ مُسَجلٍ على فلَّاح . ولا تـأْذَنُ لفلَّاحٍ أن يَسْتَدِينَ أكثرَ من نحو خمسمائة فرنك . وحكوماتُ الشرق إذا لَمْ تَسْتَدْرِكِ الأمر فتضع قانوناً من قبيلِ قانونِ روسيا تصبح الأَراضى الزِّراعيةُ بعد خمسين عاماً أو قَرْن على الأَكثر كإيرلندة الإنكليزية المسكينة ، التى وجدت فى مدى ثلاثة قرون شخصاً واحدًا حاول أنْ يَرْحَمَها فلم يُفْلِح وأعنى به « غلادستون[٢] ». على أنَّ الشرق ربَّما لا يجد فى ثلاثين قرناً من يَلْتَمِسُ الرَّحْمةَ لَهُ[٣] .

---

(١) المسد : حبل من ليف أو من أى شىء كان ، وقيل الحبل المضفور المحكم الفتل .

(٢) w.Glabstone ، هو وليم غلادستون ، السياسى الإنكليزى المشهور ، وله فى ليفربول وجهد فى إصلاح إيرلندة (١٨٠٩ – ١٨٩٨) .

(٣) « طبائع الاستبداد » ، ص ٥٨ .

واجبات الحكومة

كان الكواكبي واسع الأفق بعيد المرامى فى الإصلاح الاجتماعى يتلفت إلى كل أمر من أمور الأمة وينظر إلى كل قضية من قضايا الشعب . وهو يرسم هنا واجبات الحكومة فى تربية الأمة ومعالجة النشء منذ ولادته حتى آخر أيامه ، من تهيئة قوانين الزواج وإيجاد القابلات والأطباء ، وملاجئ الأيتام والمسارح ، وبيوت العجزة ، وإقامة النصب ، وقد قام بنفسه بشىء من هذا الإصلاح حين كانت إليه أمور البلدية فى حلب ، وإليك بعض مقترحاته فى هذا السبيل :

الحكوماتُ المنتظمةُ هى التى تتولَّى ملاحظةَ تربيةِ الأُمّة من حين تكون فى ظهورِ الآباء . وذلك بأن تسنَّ قوانينَ النكاح ، ثم تَعتنى بوجودِ القابِلات والملقِّحين والأَطبّاءِ . ثم تفتحَ بيوتَ الأيتام اللقطاء ، ثم المكاتبَ والمدارسَ للتَّعليمِ من الابتدائى الجبرىّ إلى أعلى المراتب ، ثم تسهل الاجتماعاتِ وتمهِّد المراسح ، وتحمى المنتدياتِ ، وتجمع المكتباتِ والاثار ، وتُقيم النُّصُبَ المذكِّرات ، وتضع القوانينَ المحافظة على الآداب والحُقوق ، وتسهر على حفظ العادات القوميّة ، وإنماء الإحساساتِ المالية ، وتقوِّى الآمال ، وتيسّر الأعمال ، وتؤمّن العاجزين عن الكسبِ من الموت جوعاً إلى أن تقوم باحتفالات جنائز ذوى الفضل على الأمّة . وهكذا الأمّة تحرصُ على أن يعيشَ ابنُها راضياً بنصيبه مِنْ حَياتِه ، لا يفتكر قطُّ كيف تكونُ بَعْدَه حالة صبيةٍ ضعافٍ يتركهم وراءه ، بل يموتُ مُطْمَئِنًّا راضياً ، آخرُ دعائه ، « فلْتَحْيَ الأُمّة ! فلْتَحْيَ الأُمة[1] ! »

---

(١) « طبائع الاستبداد » ، ص ٨٧ .

حياة الفقير

يصف الكاتب المفكر حال الفقراء فى عصره فكأنه رسام بارع يتبع عيشهم منذ الولادة حتى الوفاة وينتقد البيئة الاجتماعية وظلم الإنسانية لهذه الطبقة المسكينة فيقول :

وإذا افتكرنا كيف يَنْشَأُ الأَسيرُ فى البيتِ الفقير ، وكيف يتربَّى نجد أنه يلقح به ، وفى الغالب أبواه متناكدانِ متشاكسانِ . ثم إذا تحرَّك جنيناً حَرَّك شراسَة أُمِّه فشتمته ، أو ازدادت آلامُ حياتِها فضربَتْه ، فإذا ما نما ضَيَّقَتْ عليه مَقَرَّه لألفتها الانحناء خمولاً أو التضرّر صغارًا ، أو التقلّص لضيقِ الفراش . ومتى ولدتهُ ضَغَطتْ عليه بالقماطِ اقتصادًا أو جهلاً ، فإذا بكى تألماً سَدَّتْ فمَه بثَدْيها أو نفسه بدوار السرير ، أو سقته مخدّرًا عجزًا عن نفقةِ الطبيب ، فإذا ما فُطِم يأْتيه الغذاءُ الفاسدُ يُضَيِّقُ معدَته ويفسد مزاجه . فإن كان طويلَ العمر وترعرعَ يُمْنَعُ من رياضةِ اللَّعِب لضيق البيت ، فإنْ سأَل واستفهمَ ليتعلم يُزْجَر ويُلْكَم لضيق خُلُقِ أبويه . فإذا قويت رجلاه يُدْفَعُ به إلى خارجِ الباب إلى مدرسةِ الألفةِ على القذارة ، وتعلُّم صِيغ الشَّتائم والسِّباب . فَإنْ عاشَ ونَشَأَ وُضِع فى مكتبٍ أو عند ذى صنعة ؛ ويكون أكبر القصدِ ربطه عن السّراح والمراح . فإذا بلغَ الشَّبابَ رَبَطَهُ أولياؤُه على وَتِد الزَّواج كى لا يبرحَ يقاسمُهم شقاء الحياة ، ويجنى على غيرهِ كما جنى عليه أبواه . ثم هو يتولَّى التَّضييق على نفسه حتى بتثقيلِ الثياب المانعة حريةَ حركة جسمه . ويتولَّى المستبدُّون الضَّغْط. والتَّضْييقَ على عقله ولسانِه وعملِه وأملِه . وهكذا يعيشُ الأَسيرُ من حين يكون نَسْمةً فى ضِيقٍ وضغطٍ ، يُهَرْوِلُ

ما بين وَداع سُقْم إلى أن يستقبله الموتُ مُضَيِّعاً دنياه مع آخرتِه ، فيموت غير آسفٍ ولا مأسوف عليه[١].

التربية الوطنية

ينقد الكواكبى فى آثاره كلها ومقالاته بأخلاق معاصريه من المسلمين ، فيجد فيهم ضعفاً وتعاسفاً وتذللا للأجانب ، وتهوله منهم هذه التربية المريضة ، التى تقلب الحقائق فتجعل الأخلاق المالية خزياً وعاراً ، وحب الوطنية تعصباً وضيقاً فى النظر ، لذلك أرسل على لسان الفراتى (وهو لقبه) هذا الحديث :

ومن أقْبَحِ آثارِ هَذا الخَوَر[٢] نظرُهم الكمالَ فى الأَجانب ، كما ينظرُ الصِّبيان الكمالَ فى آبائِهم ومعلِّميهم ، فيندفعونَ لتقليد الأَجانب وأتباعِهم فيما يظُنُّونه رقَّةً وظرافةً وتمدّناً ؛ وينخدعُون لهم فيما يَغُشُّونهم به كاستحسانِ تَرْك التصلّبِ فى الدِّين والافتخار به . فمنهم من يستحى من الصَّلاة فى غيرِ الخلوات . وكإهمال التمسُّك بالعاداتِ القوميَّة ؛ فمنهم من يستحى من عمامته . وكالبعد عن الاعتزازِ بالعشيرة كأنَّ قومهم من سَقَط البشَر . وكنبْذِ التحزُّب للرأى كأنهم خُلِقُوا قاصرين . وكالغفلةِ عن إيثار الأَقْرَبين فى المنافع . وكالقعودِ عن التَّناصر والتَّراحُم بينهم كى لا يشمَّ من ذلك رائحة التعصُّب الدِّينى ، وإن كان على الحق ، إلى نحو ذلك من الخِصَال الذَّميمة فى أَهل الخَوَر من المسلمين الحميدة فى الأَجانب ، يُمَوِّهُون عليهم بأَنَّهم يُحسنون التحلّى بها دونَهم.

وهؤلاء الواهِنَة يحقّ لهم أن تَشُقَّ عليهم مفارقةُ حالات ألفوها عمرهم ، كما قد يألف الجسمُ السَّقَم فلا تلذّ له العافيةُ فإنَّهم منذ نعومة أظفارهم

---

(١) « طبائع الاستبداد » ، ص ٩٣ . (٢) خار الرجل خوراً : ضعف وفتر .

تعلَّموا الأدب مع الكبير ، يُقَبِّلون يده أو ذَيْلَهُ أو رِجْلَهُ ؛ وألفوا الاحترامَ فلا يَدوسون الكبير ولو داس رقابَهم ، وألفوا الثبات ثباتَ الأوتادِ تحتَ المَطَارِق ، وألفوا الانقيادَ ولو إلى المهالك ، وألفوا أن تكون وظيفَتُهم فى الحياة دون النبات ، ذاك يتطاول وهم يتقاصَرون ؛ ذَاكَ يطلب السَّماء وهم يطلبون الأَرض ، كأنهم للموت مشتاقون . وهكذا طول الألفةِ على هذه الخِصال قَلَبَ فى فكرهم الحقائقَ وجعل عندهم المخَازىَ مفاخرَ : فصاروا يُسَمُّون التَّصَاغُرَ أدَباً ، والتذلُّلَ لُطْفاً ، والتملُّقَ فصاحةً ، واللَّكْنة رزانة : وترك الحقوق سماحةً ، وقبول الإهانة تواضعاً ، والرِّضاء بالظلْم طاعةً ، فما يُسَمُّون دَعْوَى الاستحقاق غروراً ، والخروجَ عن الشَّأْنِ الذَّاتى فُضُولًا ، ومَدَّ النَّظَر إلى الغَدِ أَمَلاً ، والإقدامَ تَهَوُّراً ، والحميَّةَ حَماقةً ، والشَّهامَةَ شَرَاسَةً ، وحريةَ القول وقاحةً ، وحبَّ الوطن جنوناً[1].

المتعممون

هال الكواكبى ما كان يرى من المتعممين فى عصره من رياء ونفاق وجهل وإفساد فى الأمة الإسلامية ، فتناولهم بكثير من النقد ، ووصف ما كانوا عليه وصفاً بارعاً ثم عرض للدواء والإصلاح على عادته فقد كانوا الداء الدفين والعلة المزمنة ، فقال فى جرأة وصراحة :

وعندى أنَّ داءنا الدَّفينَ دخولُ دِيننا تحت ولايةِ العلماء الرسميِّين ؛ وبعبارةٍ أخرى تحتَ ولاية الجُهَّال المتعمِّمين .

فحينئذ أفاضَ « المولى الرومى » فى الكلام فقال : وهم المقرَّبُون مِنَ الأُمراء على أنَّهم علماء وارتباط القضاء والإمضاء بهم . فإنَّ هولاء المتعمِّمين

(١) « أم القرى » ، ص ٨٣ .

بعضُ فى البلادِ الإسلامية كانوا اتَّخذوا لأنفسهم قانوناً جعلُوا فيه من الأصولِ ما أنْتَج منذ قرنين إلى الان أن يصيرَ العلمُ منحةً رسميّةً تُعْطى للجهَّال حتى للأُمّيّين ، بل والأطفال .

ويترقَّى صاحبُها فى مَراتبِ العلمِ والفضلِ والكمالِ بمجرَّد تقادُم السِّنين ، أو ترادف العنايات ، لا سيَّما إذا كان من زمرة الأصلاء . فإنه يكون طفلًا فى المَهْد ويُنْعَت رسماً بأنه « أعلم العلماء المحقِّقين » ثم يكون فطيماً فَيُخَاطبُ بأنه : « أفضلُ الفضلاء المدقِّقين » ثم يصيرُ مراهقاً فيُعْطَى لقب : « أقضى قضاةِ المسلمين ، مَعْدِن الفضل واليقين ، رافع أعلام الشَّريعة والدِّين ، وارث علوم الأنبياء والمرسلين » ثم وثم حتى يبلغ الوصف : « بأعْلَم العلماء المتبحرين ، وأفضلِ الفضلاء المتورعين ينبوع الفضْلِ واليقين » .

ولا يظنّ ظانٌّ أنَّ هذا الإطراء[1] من الأمراء للمتعمّمين هو بقصْدِ أن يقابلوهم بالمِثْل بألقاب : « المولى ، المقدّس ، ذى القدرة ، صاحب العظمة والجلال ، المنزَّه عن النظيرِ والمثال ، واهب الحياة ، ظل الله مهبط الإلهامات ، سلطان السلاطين ، مالك رقاب العالمين ، ولىّ نعمة الثَّقَلَيْن[2] ، ملجأ أهل الخافقَيْن » إلى غير ذلك من مَصَارِع الكبرياء والمهالك .

هٰذا ولاريب أنَّ كثيرًا من هؤلاء العلماء المتبحّرين لا يُحسنون قراءة نعوتهم المزوَّرة كما أنَّ بعض أولئك المتورّعين رافعى أعلام الشَّريعة والدين ، يحاربون الله جهارًا ، ويستحقون ما يستحقون من الله وملائكته والمؤمنين.

---

(١) الإطراء : المديح والثناء . (٢) الثقلين : الإنس والجن .

ويكفى حجّة عليهم بذلك تميّزهم جميعاً بلباسٍ عروسىّ مُزَرْكش ، بكثيرٍ من الفضّة والذّهَب ، مما هو حرامٌ فى الإسلام وقد اقتبسُوا هذا اللباس مِنْ كَهَنَةِ الرُّوم الذين يلبسُون القَباء[١] والقَلَنْسُوات[٢] المذهّبة عند إقامة شعائرِهم وفى احتفالاتِهم الرسميّة . وكم من خطيبٍ يَستوى على المِنْبَر ويقول :اتّقُوا الله ، وعلى رأسِه وصدْرِه ومنكبَيْه هذا اللّباس المُنْكَر.

ثم إنَّ هؤلاء المتعممين ما كفاهم هذا القانونُ فألحَقُوه بقانونٍ آخر جعلوا فيه التّدريسَ والإرشادَ والوعْظَ. والخَطابةَ والإمامةَ وسائرَ الخدم الدِّينيَّة تباع وتشترى وتُوهب وتُورث . وما ينحلُّ منها نادرًا عن غيرِ وارِثٍ يبيعُها القضاةُ لمن يَزيدُ فى ثمنِها أو يتكرَّمون بها على المتملِّقين. وبهذا القانونِ انحصرت الخدمُ الدِّينيَّة فى الجُهَلاء والمنافقِين .

ثم لمّا شكلت بعضُ الحكومات مجالس إداريةً لم يَرْضَ المتعمّمون حتى جعلوا فيها قاضى المسلمين ، وكذلك مفتى المؤمنين ، فهما فى كلّ بلدٍ عضوانِ فى مجالسِ الإدارة يحكمان بأشياء كثيرةٍ ممّا يصادم الشّرع كالربا والضّريبة على الخمور والرُّسوم العرفية ، وغيرها مما كان الأليَقُ والأنْسَبُ بالإسلامية أن يبقى العلماءُ بعيدين عنه ، كما أنَّ القسّيس بل الشمّاس لا يحضر مجلساً يُعْقَدُ فيه زواجٌ أو تفريقٌ مدنيّان ولا يشهد فى صكّ دَيْن داخله ربا ، فضلاً عن أن يقضى أو يمضى بصفةٍ رسمية كهنوتية أمثال ذلك من الأعمال التى تصادم دين النّصرانية [٣].

---

(١) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب .

(٢) القلنسوات والقلانس : جمع قلنسوة ، نوع من ملابس الرأس .

(٣) « أم القرى » ، ص ٢١ .

البدع

ويتناول المؤلف حال الدين أو التدين عند المسلمين ، وقد فشا فيهم الزيغ والضلال وسارت البدع وقلدوا المشركين ، فتحولت العبادة إلى تقاليد وعادات ما كان المسلمون فى صدر أيامهم يعرفونها أو يقبلون بها ، فالكواكبى سلفى يسير وفاق الكتاب والسنة ، ولا يرضى بالخزعبلات والترهات فهى مرض تجب مداواته وعلة يجب اقتلاعها فيقول :

فلينظرِ الآنَ هل فَشا فى الإسلام شىءٌ من هذه الأعمالِ وأشباهِها فى الصورة أو الحكم ؟ ومن لا تـأْخذُه فى الله لومةُ لائم لا يَرى بُدًّا من التَّصريح بـأَن حالةَ السَّوادِ الأَعظم من أَهل القبلة فى غيرِ جزيرةِ العرب تشبه حالَةَ المشركين من كل الوجوه ؛ وأَنَّ الدِّين عندهم عادَ غريباً كما بدأَ كشـأْن غيرهم من الأمم . فمنهم الذين استبدلُوا بالأَصنامِ القبور ، فبنَوْا عليها المساجدَ والمشاهدَ وأسرجُوا لها السرجَ ، وأرخوا عليها الستورَ يَطُوفون حولها مقبلين مستلمين[1] أَركانها ، ويهتِفُون بـأَسماءِ سكَّانِها فى الشَّدائد ، ويذبحونَ عندها القرابين يهلُّ بها عمدًا لغير الله ، وينذرون لها النُّذور ، ويشدُّون للحجِّ إليها الرِّحال ، ويعلِّقون بسكَّانِها الآمال ، يستنزلون الرَّحمة بذكرهم وعند قبورِهم ويرجونهم بإلحاحٍ وخُضوع ومراقبةٍ وخُشوعٍ أن يتوسَّطوا لهم فى قضاءِ الحاجات وقَبُول الدَّعَوات . وكلّ ذلك من الحبِّ والتَّعظيم لغيرِ الله . والخوف والرَّجاء من سواه .

ومنهم من استعاضُوا عن ألواحِ التَّماثيل عند النَّصَارى والمشركين بـأَلواحٍ فيها أسماء معظَّميهم مصدَّرةً بالنِّداء تبركاً وذكرًا ودعاء ، يعلِّقونَها

(١) استلم الحجر : لمسه باليد ، قبله .

على الجدْران فى بيوتهم بل فى مساجدهم أيضاً[١] . ويتوجون بها الأعلام من نحو : «يا علىّ يا شاذلىّ ، يا دسوقى ، يا رفاعى ، يا بهاء الدين النقشى ، يا جلال الدين الرومى ، يا بكتاش ولى » .

ومنهم ناسٌ يجتمعونَ لأجلِ العِبادةِ بذكر الله ذكرًا مَشُوباً بإنشادِ المدائح لِغُلاة شعراء المتأخِّرين ، التى أهْوَن ما فيها الإطراء الذى نهانا عنه النبىّ ـ عليه الصَّلاة والسلام ـ حتى لنفسه الشّريفة فقال : « لا تُطْرونى كما أطْرَت اليهودُ والنَّصارى أنبياءهم[٢] » وبإنشادهم مقاماتٍ شيوخية تغالَوْا فيها فى الاستغاثةِ بشيوخهم[٣].

٤ ـ الكواكبى الأديب والعالم

القرآن والاختراع

أخذ الكواكبى بثقافة القرآن ، فتعلمه ودرسه ، ونظر فيه نظرة العالم المتعمق الدقيق، ورأى أن آياته تدعو إلى الإبداع والابتكار ومتابعة الاختراع ، وأنه يدفع إلى المراقبة والعمل والرجوع إلى العلوم الحديثة ، وفحص ما فى الكون ليكون المسلم على اتصال بالطبيعة وآياتها ومعجزاتها فراح يسرد علينا ألواناً من إعجاز القرآن فى آياته التى تدل على مشاركة فى علوم الدنيا ومسابقة للغربيين فى نظرياتهم ، فهو كتاب دين وسفر تدقيق ومطالعة . وقد دلل الكواكبى بذلك على سعة أفقه وعظيم إلمامه بالعلم وعمق فهمه للقرآن ، وقد راجت لعصره نظرية جديدة هى أن القرآن فيه كل شىء ، وقد احتوى كل علم ، فقال يدلى برأيه فى الموضوع :

لو أُطلِقَ للعلماء عِنانُ التَّدْقيق وحرّيةُ الرأْى والتأْليف ، كما أُطلقَ

---

(١) كجوامع القسطنطينية وبلاد الترك ومثل بلاد الترك أكثر بلاد المسلمين كذا فى هامش الأصل .

(٢) لفظ الحديث : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم إنما أنا عبد الله فقولوا عبد الله .

(٣) « أم القرى » ، ص ٣٩ .

لأهلِ التأويل والخُرافات لرأوا فى ألوفٍ من آياتِ القرآن ألوفَ آياتٍ من الإعجاز . لرأوا فيه كُلَّ يومٍ آيةً تتجدَّدُ مع الزَّمان والحدثان ، تُبرهن إعجازَهُ بصدقِ قوله : ﴿ وَلا رَطْبٍ وَلاَ يابِسٍ إلاَّ فى كِتَابٍ مبين ﴾[١] برهان عيان لا مجرّد تسليم وإيمان .

ومثالُ ذلك أنَّ العلمَ كشفَ فى هذه القُرون الأخيرةِ حقائقَ وطبائع كثيرةً ، تُعزَى لكاشِفِيها ومخترِعيها من علماءِ أوربّا وأمريكا . والمدقِّقُ فى القرآن يجدُ أكثرَها ورَد التصريحُ أو التَّلميحُ به فى القرآن ، منذ ثلاثةَ عشرَ قرناً . وما بقيت مستورةً تحت غِشاء من الخَفاء إلّا لتكونَ عند ظُهورها معجزةً للقرآن شاهدةً بأنَّه كلامُ رب لا يعلمُ الغيبَ سواه . وذلك أنهم قد كشفوا أن مَادَّةَ الكون هى الأثير . وقد وصف القرآنُ بَدْءَ التكوين فقال : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّماءِ وهِيَ دُخَان ﴾[٢] .

وكَشفوا أنَّ الكائناتِ فى حركَةٍ دائبةٍ ؛ والقرآنُ يقول : ﴿ وآيةٌ لَهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْنَاها ﴾[٣] إلى أنْ يقول : ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحون ﴾[٤] .

وَحَقَّقوا أنَّ الأَرض منفتقةٌ فى النظام الشمسى ؛ والقرآنُ يقول : ﴿ أَنَّ السَّمَواتِ والأَرضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُما ﴾[٥] .

---

(١) القرآن الكريم ، سورة الأنعام ٦/٥٩ .
(٢) القرآن الكريم ، سورة فصلت ٤١/١١ .
(٣) القرآن الكريم ، سورة يس ٣٦/٣٣ .
(٤) القرآن الكريم ، سورة يس ٣٦/٤٠ .
(٥) القرآن الكريم ، سورة الأنبياء ٢١/٣٠ .

وحَقَّقُوا أَنَّ القَمَر مُنْشَقٌّ من الأَرض ؛ والقرآنُ يقول : ﴿أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِن أَطْرَافِها﴾[١] ، ويقول : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ القَمَر﴾[٢] .

وَحَقَّقُوا أَنَّ طبقاتِ الأَرض سَبْعٌ ؛ والقرآن يقول : ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرض مِثْلَهُن﴾[٣] .

وَحَقَّقُوا أنَّه لولا الجبال لاقتضى الثقل النوعى أن تميد الأَرض ، أى ترتج فى دورتها ؛ والقرآن يقول : ﴿وأَلْقَى فى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أن تميدَ بكم﴾[٤] .

وكشفوا أَنَّ التغييرَ فى التركيب الكيماوى بل والمعنوى ناشئٌ عن تخالف نسبة المقادير ؛ والقرآن يقول : ﴿كُلُّ شَىْءٍ عِنْدَهُ بمقدار﴾[٥] .

وكشفوا أَنَّ للجمادات حياةً قائمةً بماء التبلور ؛ والقرآنُ يقول : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ المَاء كُلَّ شَىْءٍ حى﴾[٦] .

وحققوا أن العالم العضوى ومنه الإنسان تَرَقَّى من الجماد . والقرآن يقول : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ مِن سُلاَلَةٍ مِنْ طِين﴾[٧] .

---

(١) القرآن الكريم ، سورة الأنبياء ٢١/٤٤ .

(٢) القرآن الكريم ، سورة القمر ٥٤/١ .

(٣) فى الأصل : «خلق سبع سموات طباقاً ومن الأرض مثلهن» — وصحيح الآية ، فى القرآن الكريم سورة نوح ٧١/١٥ (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً) — ولعله يريد أن يروى الآية التالية ، سورة الطلاق ٦٥/١٢ : «الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن» . وهذا خطأ بلا شك من الطابع .

(٤) القرآن الكريم ، سورة النحل ١٦/١٥ .

(٥) القرآن الكريم ، سورة الرعد ١٣/٩ .

(٦) القرآن الكريم ، سورة الأنبياء ٢١/٣٠ .

(٧) القرآن الكريم ، سورة المؤمنون ٢٣/١٢ .

وكشفوا ناموس اللقاح العام فى النبات ؛ والقرآنُ يقول : ﴿خَلَقَ الأَزواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْض﴾[١] ويقول : ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزواجاً مِنْ نَبَاتٍ شتّى﴾[٢] . ويقول : ﴿اهتَزَّتْ وَرَبَتْ وأَنْبَتَتْ من كُلِّ زَوْجٍ بهيج﴾[٣] ويقول : ﴿ومِنْ كُلِّ الثَّمَرات جَعَل فيهَا زوجين﴾[٤] .

وكَشفوا طريقةَ إمساك الظلّ ، أى التصوير الشمسى ؛ والقرآن يقول : ﴿أَلَمْ تَرَ إلى رَبِّكَ كيفَ مَدَّ الظلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكناً ثُمَّ جعَلْنا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَليلا﴾[٥].

وكَشَفوا تَسْيِيرَ السُّفُن والمركبات بالبخار والكهرباء ؛ والقرآن يقول ؛ بعد ذكره الدواب والجوارى بالريح: ﴿وخَلَقْنَا لَهُمْ[٦] مِنْ مِثْلِهِ مَايَرْكَبون﴾[٧].

الاستبداد والقرآن

كان الكواكبى يرجع إلى القرآن والسنة والتاريخ الإسلامى كلما أراد أن يدعم رأيه ويثبت حجته ، فالقرآن عربى مبين ، يدعو إلى الحرية والشورى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والرسل قامت بتعاليم الأديان السماوية فى النصح والإصلاح ، لذلك رجع إليه واستشهد به فبرهن على واسع معرفته وعظيم فهمه وعميق ذكائه ، اتخذ الآيات سبيلا إلى القلوب والعقول فساق الآيات التى تدل على أساليب الحكم العاقلة والديمقراطية الصحيحة فقال :

وهذا القرآنُ الكريمُ مشحونٌ بتعاليم إماتة الاستبداد وإحياء العدل ، والتَّساوى ، حتى فى القصص منه . ومن جملتها قولُ بلقيس ملكة سَبَأ

---

(١) القرآن الكريم ، سورة يس ٣٦/٣٦ .
(٢) القرآن الكريم ، سورة طه ٢٠/٥٣ .
(٣) القرآن الكريم ، سورة الحج ٢٢/٥ .
(٤) القرآن الكريم ، سورة الرعد ١٣/٣ .
(٥) القرآن الكريم ، سورة الفرقان ٢٥/٤٥ .
(٦) القرآن الكريم ، سورة يس ٣٦/٤٢ .
(٧) « طبائع الاستبداد » ، ص ٢٥ .

من عربِ تُبَّع[١] ، تخاطبُ أشرافَ قومها : ﴿يَا أَيها الملأُ أفتونى فى أمْرِى ما كُنْتُ قاطعةً أمْرًا حتَّى تَشْهَدُون . قالوا نحنُ أُولو قُوَّة وأُولو بَأْسٍ شَديد ، والأمر إليكِ فانظرِى ماذا تَأْمُرِين . قالت : إنَّ الملُوك إذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أفْسَدُوها وَجَعَلُوا أعِزَّة أهْلِها أذِلَّةً ، وكذلك يَفْعلُون﴾[٢] .

فهذه القصَّةُ تعلّم كيف ينبغى أن يَستشير الملوكُ الملأَ ، أى أشراف الرعية ، وأن لا يقطعوا أمرًا إلَّا برأيهم ، وأن تُحْفظَ القوّة والبأْس فى يد الرعيَّة ، وأن يُخَصَّصَ الملوكُ بالتَّنفيذ ، ويُكْرَمُوا بنسبة الأمر إليهم ، وتعلن شأْن الملوك المستبدّين واستحقاقهم للمؤاخذة والتَّقْبيح .

ومن هذا البابِ أيضاً ما ورد فى قصّةِ موسى عليه السّلام مع فِرْعون فى قوله تعالى : ﴿وَقَالَ المَلَأُ مِنْ قَوْمِ فرعَوْن إنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَليمٌ يُرِيدُ أنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أرْضِكُم فماذا تأْمرون﴾[٣] أى قال الأشراف بعضهم لبعض ماذا رأيكم . قالوا خطاباً لفرعون وهو قرارهم : ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وأَرْسِلْ فِى المَدَائنِ حَاشِرين يَأْتُوك بكُلّ سَاحِر عليم﴾[٤] ثم وصف مذاكرتهم بقوله تعالى: ﴿فَتَنَازَعُوا أمرَهم﴾[٥] ـ أىْ رايَهم ـ ﴿بَيْنَهُمْ وأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ أى أفْضَت مذاكرتُهم العلنيَّة إلى النّزاع فَأَجْرَوْا مذاكرةً سريَّةً طبق ما يجرى إلى الآن فى مجالسِ الشُّورى العمومية .

---

(١) التبع والتبابعة : لقب ملوك اليمن .
(٢) القرآن الكريم ، سورة النمل ٢٧/٣١ – ٣٤ .
(٣) القرآن الكريم ، سورة الأعراف ٧/١٠٩ – ١١٠ .
(٤) القرآن الكريم ، سورة الأعراف ٧/١١١ – ١١٢ .
(٥) القرآن الكريم ، سورة طه ٢٠/٦٢ .

بناءً عليه ، لا مجالَ لرمْيِ الإسلامية بالاستبداد بعد أمثال هذه الآيات البيِّنات المفسِّرات للمرادِ من قوله تعالى : ﴿وَشَاوِرْهُم فِى الأَمْرِ﴾[١] أى شأنهم . وقوله تعالى : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهم﴾[٢] أى فِى الشأْن . وقوله تعالى : ﴿يا أَيُّها الَّذِين آمَنُوا أَطيعوا اللهَ وأَطِيعُوا الرسولَ وأُولى الأَمْرِ مِنْكُم﴾[٣] أى أصحاب الشأْن منكم ، وهم العلماءُ والرؤساءُ على ما اتفق عليه أكثر المفسِّرين .

ويؤيِّد هذا المعنى قولُه تعالى : ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْن﴾[٤] أى ما شأْنه ، وحديث « أَمِيرى مِنَ المَلَائِكة جِبْرِيل »[٥] أى مشاورى[٦] .

تحيه شعريه

صاغ الكواكبى كتاباته بأسلوب من النثر بديع ، قلد فيه الترسل الحر والكتابة الجميلة ، ولكنه شاء أن يشارك فى الشعر كما شارك العلماء قبله وفى عصره ، فأدلى بدلوه فيه ، وخرج منه كما خرج العلماء بنظم لا يرتفع إلى مستوى نثره ، ولكننا أردنا أن نروى هنا من هذا النظم لنعرض جوانب أدبه وتفكيره كلها فلا نخفى منها شيئاً ، ليكون عرضنا صحيحاً ، والأديب الناقد يرى فى هذا النظم نقصاً مرده إلى تصحيف المطبعة أو ضعف الناظم ، فلعله من شعره الذى تحدث عنه ابنه – كما ذكرنا – لأنه لم ينسبه إلى نفسه ، قال :

فقال « الأستاذ الرئيس » : وعليه السلام ، وأمر بقراءة القصيدة

---

(١) القرآن الكريم ، سورة آل عمران ٣/١٥٩ .

(٢) القرآن الكريم ، سورة الشورى ٤٢/٣٨ .

(٣) القرآن الكريم ، سورة النساء ٤/٥٩ .

(٤) القرآن الكريم ، سورة هود ١١/٩٧ . « وما أمر فرعون برشيد » .

(٥) جاء الحديث فى كتاب « النهاية فى غريب الحديث والأثر » ، ط . مصر ١٣١٨ ، ١/٥١ : أميرى من الملائكة جبريل ، أى صاحب أمرى ووليى وكل من فزعت إلى مشاورته ومؤامرته فهو أميرك .

(٦) « طبائع الاستبداد » ، ص ١٨ .

فَقُرِئَتْ وأُثبت منها بإشارة الأستاذ الرئيس بعضُ أبيات وهى :

غَيَّرتُمو يا حَيَارى ما بأَنْفُسِكُمْ ... فَغَيَّر اللهُ عَنْكُمْ سَابِغَ النِّعَمِ
الله لا يهلك القرى إذا كَفَـرَتْ ... وأَهلُها مصلحون فى شئونهم[1]
تَرْكُ التَّآمُر بالمعروف أورثكُمْ ... مَا حَاقَ مِنْ نُذُرٍ يَا زَلَّةَ القدَمِ

* * *

يَا قَوْمَنا صَحِّحُوا تَوْحِيدَ بَارِئكمْ ... بِدُون إشراكِ أحياءٍ ولا رممِ
وَنَقِّحُوا الشَّرْعَ مِنْ حَشْوٍ ومُخْتَرَعٍ ... رجْعَى إلى دينِ أسلافٍ ذوى ذِمَمِ
خُذوا بِمُحْكَمِ آيَاتٍ مُنَزَّلَةٍ ... وسُنَّةٍ بيَّنتْ فى الفعلِ والكَلِمِ
دَعُوا البدائعَ فى الدِّين وإنْ حَسُنَتْ ... ولا يَغُرَّنَّكُم تأْويلُ مُحْتَكِمِ[2]
سَمَاحةُ الدِّين فى فكرٍ وفى عملٍ ... خَيْرٌ من الإصر والأَغلالِ والسَّقَمِ
سَمَاحَةُ الدِّين مَنَّ اللهُ خَالِقُـكمْ ... بِهَا عَلَيْكُم دَعُوا الكُفْرانَ بِالنِّعَمِ
وَحَافِظُوا مِلَّةً بَيْضَاء سَاطِعَـةً ... وَسَمْحَةً قَدْ حَبَتْكُمْ كُلَّ مغتنِمِ
رَاقَتْ فَضَائلُها فى كلِّ فَلْسَفَةٍ ... قوامُها حكْمَةٌ تُفْضى إلى شَمَمِ[3]

* * *

(١) يبدو هذا البيت مختلا لا يستقيم به وزن ذلك أنه استعمل فى الشطرين « متفعلن » بدل « مستفعلن » الثانية وهو نادر .

(٢) فى هذا البيت أيضاً استعمل « مفتعلن » بدل « مستفعلن » الثانية فى الشطر الأول وهو كذلك نادر جداً فى بحر البسيط .

(٣) « أم القرى » ، ص ٩٧ ، وقد روى القصيدة على لسان الأديب البيروتى الذى لم يمكنه القدر من موافاة الجمعية ، فأرسل يقرئ الأعضاء سلامه ومعه هذه الأبيات يخاطب بها المسلمين .

المراجع

عبد الرحمن الكواكبي : سجل مذاكرات جمعية أم القرى ، أو مؤتمر النهضة الإسلامية المنعقد فى مكة المكرمة سنة ١٣١٦ هـ ، لجامعه السيد الفراتى كاتب الجمعية . ونُشر فى المجلد الخامس من مجلة «المنار» الإسلامية بمصر سنة ١٣٢٠ هـ .

وطُبع مراراً ، ومنها بعنوان : « أم القرى أى ضبط مفاوضات ومقرّرات مؤتمر النهضة الإسلامية فى مكة المكرمة سنة ١٣١٦ هـ ، تأليف فقيد العلم والوطن المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبى ، مزيّن برسم الفقيد وتاريخ حياته ، طُبع على نفقة إبراهيم فارس صاحب المكتبة الشرقية فى مصر مطبعة التقدم ، بغير تاريخ ، فى ١٨٥ صفحة » .

« طبائع الاستبداد ومصادر الاستعباد » ، وهى كلمات حق وصيحة فى واد . إن ذهبت اليوم مع الريح لقد تذهب غداً بالأوتاد. محررها هو الرحالة ك . طُبع بالمكتبة التجارية بمصر ١٩٣١ ، فى ١٣٦ صفحة .

وطُبع مراراً كذلك مصدّراً باسمه : عبد الرحمن الكواكبى الملقّب بالسيد الفراتى ، وعليه رسمه ، وأشعار قيلت فى مدحه .

محمد رشيد رضا : « طبائع الاستبداد » ، فى باب الهدايا والتقاريظ ، مجلة « المنار » ١٩٠١ ، ٤ / ١٠٥ — ١٠٦ .

: « أم القرى » ، فى باب التقاريظ ، مجلة « المنار » ١٩٠٢ ، ٤ / ٩٥٩ — ٩٦٠ .

: مصاب عظيم بوفاة عالم حكيم ، مجلة « المنار » ، يوم السبت ٧ يونيو ١٩٠٢ ، ٥ / ٢٣٧ — ٢٨٠ .

جرجى زيدان : السيّد عبد الرحمن الكواكبى ، مجلة «الهلال » ، ١٥ يوليو ١٩٠٢ ، ١٠ / ٥٩٤ — ٥٩٦ .

: السيد عبد الرحمن الكواكبى (المقال السابق نفسه) فى كتاب « مشاهير الشرق » ، ١٩٠٣ ، ١/٣٥٠

: « تاريخ آداب اللغة العربية » ، مصر ١٩٣٧ ، ٤ / ٢٧٠ .

محمد كرد على [1] : السيد عبد الرحمن الكواكبى ، مجلة « المقتطف» ، أول يوليو ١٩٠٢ ، ٢٧ / ٦٢٢ — ٦٢٤ .

: « المذكرات » ، دمشق ١٩٤٨ ، ٢ / ٦١٠ — ٦١٢ .

فيليب دى طرازى : « تاريخ الصحافة العربية » : جرائد حلب ، بيروت ١٩١٣ ، ٢ / ٢٠٠ — ٢٠٢ ، ٢ / ٢٢١ — ٢٢٣ .

لويس شيخو : عبد الرحمن الكواكبى ، مقالات فى مجلة « المشرق » ، بيروت ١٩٢٥ ، ٢٣ / ٣٨٣ .
ثم فى كتاب « تاريخ الآداب العربية » فى الربع الأول من القرن العشرين ، بيروت ١٩٢٦ ، ص ١٨ .

محمد راغب الطباخ : « أعلامُ النبلاء بتاريخ حلب الشهباء » . حلب

(١) أنبأنا المرحوم الرئيس محمد كرد على بأنه هو كاتب هذا المقال رحمه الله .

١٩٢٦ ، ٧ / ٥٠٧ — ٥٢٤.

: مجلة « المجمع العلمى العربى » بدمشق ، سنة ١٩٣٠ ، ١٠ / ٤٤ (عن السيد مسعود الكواكبى شقيق السيد عبد الرحمن) .

كامل الغزى : عبد الرحمن الكواكبى (تاريخ ما أهمله التاريخ من سيرته) مجلة « الحديث » ، حلب ١٩٢٩ ، ٣ / ٤٠٥ — ٤٥٠ .

: « نهر الذهب فى تاريخ حلب » ، حلب ١٩٢٦ ، الجزء الثالث (الأحداث فى حلب على عهد العثمانيين) .

يوسف إليان سركيس : « معجم المطبوعات العربية والمعرّبة » ، مصر ١٩٢٨ ، السيد عبد الرحمن الكواكبى ، بالعمود ١٥٧٤ — ١٥٧٦ .

محمد لطفى جمعة : ثلاثة رجال : الأفغانى ، والكواكبى ، والثعالبى ؛ مجلة « الحديث » حلب ١٩٣٧ ، ١١ / ٦٥٠ .

إبرهيم سليم النجار : عبد الرحمن الكواكبى (من ذكريات الماضى) ، مجلة « الحديث » ، حلب ١٩٤٠ ، ١٤ / ٣ — ٧ .

: عبد الرحمن الكواكبى ، مجلة « الحديث » ، حلب ١٩٥١ ، ٢٥ / ١١٦ — ١٢١ .

خير الدين الزركلى : « الأعلام » ، قاموس تراجم ، عبد الرحمن بن أحمد الكواكبى ، مصر ١٩٢٧ ، ٢ / ٤٨٧ .

برهان الدين الداغستانى : عبد الرحمن الكواكبى ، مجلة « الثقافة » ، بمصر ٥ / ٣١٠ .

أحمد أمين : السيد عبد الرحمن الكواكبى ، « فيض الخاطر » ،

مصر ١٩٤٥ ، ٦ / ١٧٩ — ٢٠٢ .
ثم فى كتابه « زعماء الإصلاح فى العصر الحديث » ، مصر ١٩٤٨ ، ٢٥٤ — ٢٨٤ .

عبد الله كنون : السيد عبد الرحمن الكواكبى ، فى كتابه «التعاشيب» تطوان ، بغير تاريخ ، ١٣٦ — ١٤٧ .

سامى الكيالى : عبد الرحمن الكواكبى ، مجلة « الكتاب » ، مصر يناير ١٩٤٧ ، ٤٣٧ وما بعدها .

: ذكرى الكواكبى ، بمناسبة مرور خمسين سنة على وفاته ، مجلة « الحديث » ، حلب ، أيلول ١٩٥٢ ٥٣٧ — ٥٤١ .

محمد أسعد الكواكبى : عبد الرحمن الكواكبى ، بقلم ولده الدكتور محمد أسعد الكواكبى ، إستانبول ١٩٥٢ ، مجلة «الحديث» حلب ١٩٥٢ ، ٢٦ / ٥٤٢ — ٥٥٤ .

: صفحات لم تنشر من كتاب « طبائع الاستبداد » مجلة « الحديث » حلب ١٩٥٢ ، ٢٦ / ٥٥٥ — ٥٥٨ .

محمد جميل بيهم : عهد الكواكبى فى العالم العربى ، مجلة « الحديث » حلب ١٩٥٢ ، ٢٦ / ٥٥٩ — ٥٦٣ .

عبد الرحمن الكيالى : المبادئ الخالدة فى كتابى « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » ، مجلة « الحديث » ، حلب ١٩٥٢ ، ٢٦ / ٥٦٤ — ٥٧٨ .

أنيس الخورى المقدسى : « الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث » ، بيروت ١٩٥٢ فى جزءين .

مارون عبود : « رواد النهضة الحديثة » ، دار العلم للملايين ،

بيروت ١٩٥٢ ، ص ٢٠١ — ٢٠٦ .

محمد أحمد خلف الله : « الكواكبي ، حياته وآراؤه » ، مكتبة العرب بمصر ، بغير تاريخ فى ١٣٩ صفحة من القطع الصغير .

كارول بروكلمن : « تاريخ الأدب العربى » بالألمانية ، ترجمة قصيرة ومصادر ، ليدن ١٩٤٢ ، الذيل ٣ / ٣٨٠ .

أغناطيوس كرتشكوفسكى : رأى فى طبائع الاستبداد ، بمجلة « المستشرقين » (M.S.O.S.) ٣١ / ١٨٦ .

يوسف أسعد داغر : « مصادر الدراسة الأدبية » ، بيروت ١٩٥٥ ، ٢ / ٦٧٢ — ٦٧٥ ، وفيه تفصيل المصادر التى كتبت عن الكواكبي .

(وهناك صحف كتبت عنه فى مصر إثر وفاته ، منها : اللواء ، والمؤيد ، والقاهرة ، والرقيب ، والأهرام ، لم نقع عليها آسفين) .